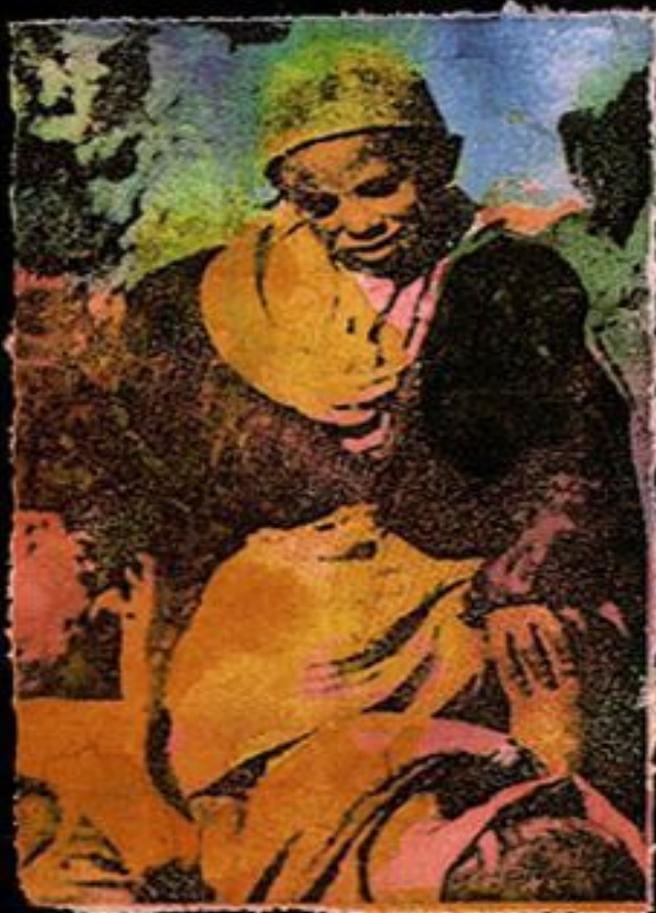


محمد شكري

الخبر الحافي



مكتبة علي بن صالح الرقمية

محمد شكري



الخبز الحافي

رواية

1972



كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

كلمة

صباح الخير أيها الليليون،

صباح الخير أيها النهاريون،

صباح الخير يا طنجة المنغرسَة في زمن زئبقي.

ها أنا ذا أعود لأجوس، كالسائر نائماً، عبر الأزقة والذكريات، عبر ما خَطَّطْتُهُ عن «حياتي» الماضية - الحاضرة... كلمات واستيهامات وندوب لا يُلْتَمَهُ القول.

أين عمري من هذا النسج الكلامي؟

لكن عبير الأماسي والليالي المكتظة بالتوجس واندفاع المغامرة يتسلل إلى داخلي ليُعيد رماد الجمرات غلالة شفاقة آسرة...

منذ سنتين مات «عبدون فرُوسو». البطل الحقيقي الذي أيقظ مُخيلتي وأعانني على تحمل القهر والحرمان وعنف الصراع الجسدي... مات قبل أن أنشر قصة «الخيمة» التي استوحيتها من حضوره وتدفعه وشغفه بالحياة. أنتظر أن يُفرجَ عن الأدب الذي لا يجترُّ ولا يُراوغ: مثل هذه الصفحات عن سيرتي الذاتية، كتبها منذ عشر سنوات ونشرت ترجمتها بالإنكليزية والفرنسية والإسبانية قبل أن تعرف طريقها إلى القراء في شكلها الأصلي العربي.

لقد علمتني الحياة أن أنتظر. أن أعِيَ لعبة الزمن بدون أن أتنازل عن عمق ما استحصدته: قل كلمتك قبل أن تموت فإنها ستعرف، حتماً،

طريقها. لا يَهُمُّ ما ستؤول إليه. الأهم هو أن تُشعل عاطفة أو حزناً أو
نزوة غافية... أن تُشعل لهيباً في المناطق اليباب الموات.

فيا أيها الليليون والنهاريون، أيها المتشائمون والمتفائلون، أيها
المتمردون، أيها المراهقون، أيها «العقلاء»...: لا تنسوا أن «لعبة الزمن»
أقوى منا، لعبة مُميتة هي: لا يمكن أن نواجهها إلا بأن نعيش الموت السابق
لموتنا، لإماتتنا: أن نرقص على حبال المخاطرة نُشداناً للحياة.

أقول: يُخرج الحيّ من الميت.

يُخرج الحيّ من النتن ومن المتحلل. يُخرجه من المتخّم والمنهار...
يُخرجه من بطون الجائعين ومن صلب المتعيشين على الخبز الحافي».

م. ش.

طنجة 17/5/1982

_ 1 _

أبكي موت خالي والأطفال من حولي. يبكي بعضهم معي. لم أعد أبكي فقط عندما يضربني أحد أو حين أفقد شيئاً. أرى الناس أيضاً يبكون. المجاعة في الريف. القحط والحرب.

ذات مساء لم أستطع أن أكف عن البكاء. الجوع يؤلمني. أمص وأمص أصابعي. أتقيأ ولا يخرج من فمي غير خيوط من اللعاب. أمي تقول لي بين لحظة وأخرى:

- اسكت، سنهاجر إلى طنجة. هناك خبز كثير. لن تبكي على الخبز عندما نبلغ طنجة. الناس هناك يأكلون حتى يشبعوا.

أخي عبد القادر لا يبكي. أمي تقول:

- خم أو ماش (انظر أخاك) نتا ويتروشا (إنه لا يبكي). إشك تترود (وأنت تبكي).

أنظر إلى سحنته الشاحبة وعينييه الغائرتين فأكف عن البكاء. بعد لحظات أنسى الصبر الذي أستمدّه منه.

دخل أبي. وجدني أبكي على الخبز. أخذ يركلني ويلكمني:

- اسكت، اسكت، اسكت، ستأكل قلب أمك يا ابن الزنا.

رفعني في الهواء، خبطني على الأرض. ركلني حتى تعبت رجلاه وتبلل سروالي.

في طريق هجرتنا، مشياً على الأقدام، رأينا جثث المواشي تُحوّم حولها الطيور السوداء والكلاب، روائح كريهة، أحشاء ممزقة، دود ودم وصيد.

في الليل يُسمعُ عواء الثعالب قرب الخيمة التي نصبها حيثما يوقفنا التعب والجوع. الناس، أحياناً يدفنون موتاهم حيث يسقطون. أخي يسعل ويسعل. سألت أمي خائفاً:

- أهو أيضاً سيموت؟

- كلا. من قال لك أنه سيموت.

- خالي مات.

- أخوك لن يموت. هو فقط مريض.

في طنجة لم أر الخبز الكثير الذي وعدتني به أمي. الجوع أيضاً في هذه الجنة، لكنه لم يكن جوعاً قاتلاً.

حين يشتد عليّ الجوع أخرج إلى حيّ «عين قطيوط». أفتش في المزابل عن بقايا ما يُؤكَل. وجدت طفلاً يقات من المزابل مثلي. في رأسه وأطرافه بثور. حافي القدمين وثيابه مثقوبة. قال لي:

- مزابل المدينة أحسن من مزابل حيّنا. زبل النصارى أحسن من زبل المسلمين¹.

بعد هذا الاكتشاف صرت، أحياناً، أذهب أبعد من حيّنا: وحيداً أو صحبة أطفال المزابل.

عثرت على دجاجة ميتة. ضممتها إلى صدري وركضت إلى بيتنا. أبواي في المدينة، أخي في ركن ممدد، نصفه الأعلى مرفوع فوق وسادة. يتنفس بصعوبة. عيناه الكبيرتان الذابلتان ترقبان مدخل الباب. يرى الدجاجة. تتيقظ عيناه. يبتسم. يتورد وجهه النحيل. يتحرك كأنه يفيق من إغماء. يسعل فرحاً، أعثر على السكين. يسعل ويلهث. أولّي وجهي قبلة المشرق: حيث أرى أمي تولّي وجهها وتصلي. قلت جهراً: «بسم الله. الله

أكبر». هكذا رأيت الكبار يفعلون. ذبحتها حتى انفصل رأسها. انتظرت أن يسيل دمها. أدلكها لعل الدم يسيل منها. يسيل قليل قاتم من ثقب عنقها. في «الريف» رأيتهم يذبحون كبشاً. لا أدري في أية مناسبة. وضعوا طاساً تحت عنق الكبش الفائز بالدم. امتلاً الطاس وأعطوه لأمي المريضة. رأيتهم يمسكون بها في الفراش وهي تقاومهم عازفة عن شراب الدم. جعلوها تشربه بالقوة. تلوث وجهها وثيابها. تمرغت في الفراش ثم همدت وهي تهمهم بكلمات غير مفهومة. لماذا لا يفور الدم الآن من عنق هذه الدجاجة كما رأيتة يفور من عنق الكبش؟ شرعت أريشها. سمعت صوتها:

- ماذا تفعل؟ من أين سرقتها؟

- عثرت عليها مريضة. ذبحتها قبل أن تموت. اسألي أخي.

- مجنون! (خطفتها مني غاضبة). الإنسان لا يأكل الجيفة.

أخي وأنا تبادلنا نظرات حزينة. كلانا أغمض عينيه في انتظار ما سنأكله.

أبي يعود كل مساء خائباً. نسكن في حجرة واحدة. أحياناً أنام في نفس المكان الذي أتقرفص فيه. أن أبي وحش. عندما يدخل لا حركة، لا كلمة إلا بإذنه كما هو كل شيء لا يحدث إلا بإذن الله كما سمعت الناس يقولون. يضرب أمي بدون سبب أعرفه. سمعته مراراً يقول لها:

- سأهجرك يا ابنة القحبة. دبري أمرك وحدك مع هذين الجروين.

ينشق السعوط. يتكلم وحده. يبصق على أناس وهميين. يشتمنا. يقول لأمي: «أنت قحبة بنت قحبة». يسب العالم دائماً ويجدف على الله أحياناً ثم يستغضه.

أخي يبكي، يتلوى ألماً، يبكي الخبز. يصغرنني. أبكي معه. أراه يمشي إليه. الوحش يمشي إليه. الجنون في عينيه. يداه أخطبوط. لا أحد يقدر أن يمنعه. أستغيث في خيالي. وحش! مجنون! امنعوه! يلوي اللعين عنقه

بعنف. أخي يتلوى. الدم يتدفق من فمه. أهرب خارج بيتنا تاركاً إياه يسكت أمي باللكم والرفس. اختفيت منتظراً نهاية المعركة. لا أحد يمر. أصوات ذلك الليل بعيدة وقريبة مني. السماء. مصابيح الله شاهدة على جريمة أبي. الناس نائمون. مصباح الله يظهر ويختفي. شبح أمي. صوتها خفيض. تبحث عني. تنتحي. الظلام يخفيني. لماذا ليست قوية مثله؟ الرجال يضربون النساء وهن يبكين ويصرخن.

- محمد، محمد اينو (محمدي). أراحد (تعال). لا تخف. أراحد. وجدت لذتي في أن أراها ولا تراني. قلت لها:

- أقابي ذاتيتا (ها أنا هنا).

- أراحد.

- لا. أذاي ينغ (سيقتلني) أمش (مثلما) ينغاً (قتل) أو ما اينو (أخي).

- لا تخف. تعال معي. لن يقتلك. تعال. اسكت حتى لا يسمعنا الجيران.

ينتحب وينشق السعوط. عجيب: يقتل أخي ثم يبكيه.

سهرنا ثلاثتنا ننتحب في صمت. أخي مسجى مغطى بقماش أبيض. نمت وتركتهما ينتحبان.

في الصباح انتحبنا أيضاً بصمت. تلك أول مرة أذهب في جنازة. أخي منعوش في حصيرة بين ذراعي الشيخ، أبي وراءه وأنا خلفهما حافياً أعرج. يضعانه في حفرة مبللة. أرتجف وأبكي. لطحمة دم متخثرة حول فمه. يختفي وراء التراب. صار ربوة صغيرة.

انتبه الشيخ، لدى خروجنا من المقبرة، لبناي الدامية. سألني بالريضية:

- ماذا الذا ما؟ (ما هذا الذا؟)

- عفسغ خ الزاج (عفسست على الزجاج).

قال أبي:

- لا يعرف حتى كيف يمشي. ذابو هاري (أبله).

سألني الشيخ:

- أكنت تحب أخاك؟

- كثيراً (ما زلت منتخباً). أمي كانت تحبه كثيراً. تحبه أكثر مما تحبني.

- من لا يحب ولده؟

تذكرت كيف لوى أبي عنق أخي. كدت أصرخ: أبي لم يكن يحبه. هو الذي قتله. نعم. قتله. قتله يقتله. رأيتَه يقتله. هو هو قتله. قتله. رأيتَه يقتله. لوى عنقه. تدفق الدم من فمه. رأيتَه رأيتَه يقتله. أبي قتله قاتله الله.

لكي أخفف من كراهيتي الشديدة لأبي أخذت أبكي من جديد. كنت خائفاً من أن يقتلني كما قتل أخي. نهرني بصوت منخفض وعيد.

- ألن تكفّ عن البكاء؟

قال الشيخ:

- نعم، كفى من البكاء. أخوك عند الله. هو الآن مع الملائكة.

أكره أيضاً هذا الذي دفن أخي.

يشترى كيساً من الخبز الأبيض والتبغ الرخيص. يذهب إلى مكان بعيد عن طنجة ليقايض الجنود الإسبانيين في ثكناتهم. يعود مساءً حاملاً ملابس الجنود. يبيعه في السوق الكبير للعمال والفقراء المغاربة.

ذات مساء لم يعد. نمت تاركاً أمي مهمومة تنتحب. انتظرنا ثلاثة أيام. أحياناً أنتحب معها. كنت أؤازرها. تحبه؟ لا تحبه؟ أدركت السبب عندما

قالت:

- ها نحن وحدنا. من سيعيننا؟ لا نعرف أحداً في هذه المدينة. جدتك رقية، خالتك فاطمة وخالك إدريس هاجروا من الريف هم أيضاً إلى وهران. لا بد أن يكون العساكر الإسبانيون هم الذين قبضوا على أبيك. إنه هارب من الجندية الإسبانية.

علمنا أنهم سجنوه. وشى به جندي مغربي كان يعرفه في إسبانيا. لم يرد أبي أن يبيع بطانية عسكرية بالثمن الذي كان يريده الجندي الواشي. هذا ما قيل لأمي.

تذهب إلى المدينة باحثة عن عمل. تعود خائبة مثلما كان أبي يعود في الأيام الأولى من وصولنا إلى طنجة. تقضم أظافرها. تنتحب. يكتب لها المشعوذون توائم لعل أبي يخرج من السجن وتجد هي عملاً. تصلي كثيراً وتدعو كثيراً. تشعل الشموع في أضرحة أولياء الله. تستطلع حظ مستقبنا عند «الشوافات». لا سراح من السجن، لا عمل ولا حظ إلا بأمر من الله ورسوله محمد. هكذا تقول.

لماذا الله لا يعطينا حظنا مثلما يعطيه لبعض الناس؟ هكذا سألت أمي.

- الله هو الذي يعرف. نحن لا نعرف. لا ينبغي لنا أن نسأله عما يعرفه هو خيراً منا.

باعت أشياء من منزلنا. أرسلتني يوماً مع أطفال جيراننا لآتيها بالبقول. خفت أن يعتدوا عليّ. لم يكن لي بينهم صديق حميم أستنجد به إذا أنا تعاركت مع أكثر من واحد. إنهم يتحامون ضد الوافدين الجدد إلى المدينة. تخلفت عنهم في الطريق. تظاهرت أنني سأبول. نزلت إلى المدينة. أحب حركتها. في السوق البراني² أكلت أوراق الكرنب، قشور البرتقال وبقايا فواكه عفنة. طفل يكبرني يطارده شرطي. بين الطفل والشرطي مسافة قصيرة. تخيلتني ذلك الطفل. ألهث معه. الناس يقولون: سيقبضه! سيقبضه! صاح الناس: ها هو قبضه!

ارتعشت. خفت تصورتني قبضني. دعوت الله ألا يقبضه، لكنه قبضه. شعرت بكراهية للذين تمنوا أن يقبضه. من بعيد رأيت امرأة أجنبية تلت وراء الذين توقفوا ليتفرجوا على الحادث. سمعتها تتكلم وحدها بلغة لا أفهم منها كلمة. قال رجل مغربي:

- لم يترك لها غير أذن حقيبتها في يدها.

هوى شرطي على مؤخرتي بهراوته. قفزت في الهواء صارخاً بالريضية: أيمانوا! أيمانوا! **3** لعن الشرطي في خيالي. شرطيان آخران يضربان الصغار ويدفعان الكبار. ضربا أيضاً بعض المغاربة البائسين الكبار.

سمعت أن رجال الأمن يضربون الناس ويقودونهم إلى السجن إذا هم قتلوا أو سرقوا أو سال دمهم في العراق.

دخلت مقبرة «بوعراقية». التقطت أغصاناً من الريحان من فوق القبور الجميلة. وضعتها على قبر أخي. رأيت هناك قبوراً كثيرة بلا ريحان، بلا بلاطات مثل قبر أخي: ربوة من التراب وحجران (مختلفان في الشكل) يشير واحد منهما إلى الرأس والآخر إلى القدمين. تألمت للقبور المنسية: تكسوها نباتات وحشية، بعضها منهار. حتى هنا، في المقابر، عندهم الأغنياء والفقراء. لماذا يموت الإنسان؟ - لأن الله يريد ذلك - هكذا أجابتنني أمي. أين يذهب من يموت؟ - إلى الجنة أو النار.

- ونحن؟

- إلى الجنة ان شاء الله.

- وماذا هناك؟

- إنك تسأل كثيراً. حتى تكبر وتعرف كل شيء.

وجدت هناك البقول التي وصفتها لي أمي. رأيت ثلاثة رجال يشربون بالتناوب من زجاجة لون سائلها قاتم. ناداني أحدهم:

- إيه! تعال إلي هنا أيها الطفل! تعال لكي أعطيك شيئاً.

خَفْتُ وَهَرَبْتُ. أَعْطَهُ لِأَمِّكَ يَا ابْنَ الزَّانَا.

أثناء وجبة الغداء قالت لي:

- هذي البقول لذيدة.

أكل بلذة مثلها. أبلع أكثر مما أمضغ.

- من أين جمعتها؟

- من مقبرة بو عراقية.

- من المقبرة؟

- نعم، من المقبرة. ماذا في ذلك؟

انفغر فمها. أضفت:

- زرت قبر أخي. وضعت فوق قبره بعضاً من الريحان. ربوة تراب

قبره لم تعد عالية. إذا ظل قبره كما هو من التراب فسيتساوى مع الأرض ولن نستطيع أن نعثر عليه بين القبور التي تجاوره.

تركت الأكل. انقبضت ملامحها. دمعت عيناها. أضفت:

- هناك كثير من هذه البقول حول القبور المنسية.

- ما ينبت في المقابر لا يأكله الناس.

- لماذا؟

تأملتني بحيرة. أنا آكل بشهية. تخيلتها ستقيء. أخذت صحنني. قالت

بالريضية.

- أَشْفَاشُ، أَتَشْدُ إِخْفِيشُ (كفاك، لتأكل نفسك).

- لم أشبع.

- من أين جمعت الريحان؟

- من فوق بعض القبور. فوقها ريحان كثير.

قالت بصرامة:

- غداً ستعود إلى المقبرة وترد ريحان الناس إلى مكانه. إنها قبور الناس. حذار أن يراك أحد ترد الريحان إلى القبور. نحن أيضاً سنشتري لأخيكَ الريحان. سنبني له قبراً جميلاً.

بدأت تنتحب. أنا أيضاً غلبنى الحزن فسالت دموعي. ضمتني إليها ونعست.

تصحبني معها إلى السوق الكبير. نشترى ركماً من خبر يابس يبيعه المتسولون تحت شجرة ضخمة قرب ضريح سيدي المخفي. تطبخه في الماء، مع قليل من الزيت والتوابل. أحياناً في الماء وحده.

ذات صباح باكر قالت:

- أنا سأذهب إلى السوق. سأشتري خضراً وفواكه وأبيعها. أنت ستبقى هنا. احرس بيتنا. لا تلعب مع الأطفال وتترك بيتنا للسراق.

بينني وبين أطفال الحي فوارق تجليني أحس بأني أقل منهم رغم أن بعضهم بأئس مثلي. رأيت واحداً منهم يلتقط عظام الدجاج من المزبلة ويمصها. قال الطفل: «أصحاب هذه الدار يرمون دائماً زبلاً جيداً». يقولون عني:

- هو ريفي. جا من بلاد الجوع والقتالة (القتلة).

- ماكي عرفش يتكلم العربية.

- الريفيون كلهم مرضى هذا العام بمرض الجوع.

- حتى حيواناتهم هي مريضة.

- نحن لا نأكلها. هم يأكلونها. تزيدهم مرضاً على مرض.

- إذا ماتت لهم بقرة أو غنمة أو عنزة كياكلوها. كياكلو حتى الجيفة.

الطفل «الجبلي» الوافد مثل الريفي على المدينة، يشترك معه في هذا الاحتقار، لكنه لا يعيرُ مثل الريفي. غالباً ما يعتبرونه مغفلاً: «الريفي خداع والجبلي نية»⁴.

يجاور سكاننا بستان صغير. شجرة إجاص كبيرة تغريني كل يوم. ذات صباح باكر ضبطني صاحب البستان أسقط له إجاصاته الكبيرة، الناضجة، بقصبة طويلة. هو يجرنني وأنا أحاول باكياً أن أتخلص منه. بلتُ في سروالي المغربي الفضفاض رغم أنه لم يضربني. قال لزوجته البشوش:

- ها هو البرغوث الذي يفسد لنا شجرة الإجاص. يفسد أكثر مما يأكل مثل الفأر.

سألتنني بلطف خفف عني خوفي:

- أين هي أمك يا ولدي؟

- ذهبت لتبيع الخضر والفواكه في السوق.

- كفاك من البكاء. وأبوك؟

- في الحبس.

- في الحبس؟

- نعم في الحبس.

- مسكين! لماذا هو في الحبس؟

أربكنني السؤال. أعادت السؤال ملاطفة وجهي بحنان:

- قل لي، لماذا هو أبوك في الحبس؟

فكرت أن في الجواب الصريح مساساً بكرامة أبوي.

- لا أعرف. أمي هي التي تعرف.

تجاوز الرجل مع زوجته وابنته التي جاءت عارية القدمين في شأن حبسي حتى تعود أمي. رأس الفتاة ملفوف بمنديل أبيض ويدها الرفيعتان البيضاءوان مبللتان. أدركت أن المرأة وابنتها تشفقان عليّ، لكن الزوج، بين جد ومزاح، كما يبدو من كلامه وملامحه، يصرّ على عقابي. أدخلني حجرة قاتمة كُدِّست فيها أشياء أغلبها مكسور. قال لي مغلقاً عليّ الباب»

- إياك أن تبكي. سأجلدك بقضيب إذا أنت بكيت.

الحبس في حجرة. هذه أول مرة. إذن يمكن أن يتحكم فيّ ناس من غير أن يكونوا من أسرتي. الإجازات هي لهؤلاء الذين حبسوني الآن. لكن لماذا نهجر نحن الريف ويبقى آخرون في بلادهم؟ يدخل أبي السجن، تبع أمي الخضر، تاركة إياي وحدي جائعاً ويبقى هذا الرجل مع زوجته في منزلهما؟ لماذا لا نملك ما يملكه غيرنا؟

أرى من ثقب مفتاح الباب الشابة تنظف الأرض بالماء والصابون بحيوية، حافية القدمين، حاسرة ثوبها الشفاف عن فخذيها البيضاءوين ونهديها العاريين الصغيرين. يهتزان، يطلان ويختفيان من خلال فتحة قميصها مثل عنقودين من العنب يتدليان. شعرها ملفوف في المنديل الأبيض الملطخ بالحنة. ملفوف مثل رأس الملفوف⁵.

طرقت الباب بخوف. أراقب حركاتها. قلبي يخفق مع حركاتها خوفاً وفرحاً. التفتت نحو الباب منحنية تجفف الأرض.

- تعالي وافتحي هذا الباب اللعين.

ترددت للحظة. ألححتُ عليها في خيالي:

- أرجوك، لا تتردي، تعالي.

تركت الجفاف واستقامت. نفضت يديها من الماء، شدت على وسطها
بيديها. ارتسم ألم خفيف على وجهها المورد. ها هي آتية نحو الباب. خفق
قلبي. ارتعشت. فتحت وقالت برقة باسمه:

- ها أنا. ماذا تريد؟

تلعثمت. دمعت عيناى.

- ستضربني أمى إذا هي عادت من السوق ولم تجدني في البيت أحرسه
من اللصوص. لقد تركتني أحرسه.

خفضت رأسى خجلاً واستعظافاً. نظرت إلى فخذىها الممتلئين. أطلقت
ثوبها المشدود إلى حزامها القماشى. تأملتني بإشفاق. أتطلع إليها متوسلاً.
شدت بيدها على فتحة صدرها المفتوحة. ينتصب نهذاها الطويلان. يَشْفُ
بياض الثوب عن حلمتيها مثل حبتى عنب.

- هل ستطيح الإجاى بالقصبة مرة أخرى من شجرة بستاننا؟

- أبدأ. اقتليني أنت بنفسك إذا وجدتنى مرة أخرى أطيح الإجاى.

ابتسمت. لم أبتسم. خرجت مسرعاً. أدركنى صوتها الرقيق:

- آجى. جوعان؟

اختلجت ملامح وجهى. قلت باضطراب:

- لاج شعبان.

ألحت علىّ أن أنتظرها. أبواها غائبان عن الدار. تطلعت إلى الشجرة.
امتزج حبى وكراهيتى لها. لن آكل منها بعد اليوم.

مدت لى رغيفاً يقطر بالعسل الأسود.

- إذا جعت فعد إلينا. (أضافت): أليس عندك حذاء؟

- أمى ستشترىه لى.

تفحصتني باسمه وأنا ألتفت إليها مبتعداً عنها. قبل أن أختفي لوحت لي بيدها باسمه. أجبته مبتسماً واختفيت.

أهو الرجل أقى من المرأة؟ أتمنى لو أنها أختي. هذا المنزل والبستان لو أنهما لنا. صاحب البستان أقل قسوة من أبي. لو أنه أبي.

يتبعنا بعناد يقترب منها ويهمس في أذنها بكلمات لا أسمعها. تبتعد عنه. نعبّر إلى الرصيف الآخر ماسكة يدي. أحياناً تسحبني بشدة. يلاحقنا بعناد. يضحك. تعبس. نتوقف. يسبقنا ويبطئ سيره. نعبّر من جديد إلى الرصيف الآخر. يتبعنا بعناد. أنا غاضب. سألتها:

- ماذا يخصه هذا الرجل؟

- ليس شغلك.

أنظر إليه. يبتسم يتبعنا بعناد. ماذا يريد من أمي؟ أهو يريد أن يخطفها؟ لا شك أنه خطاف. شددت على يدها بقوة.

- لا تمسكني من يدي هكذا. لن أهرب منك.

قلت له بغضب:

- امش، امش. ماذا تريد؟

اللعنة عليك. يبتسم لي ولأمي. قالت لي:

- قلت لك اسكت أنت. ألا تسمع؟

غضبت عليها في خيالي. أنا أدافع عنها وهي تسكتني.

التقت أمي امرأة. أخذنا تتكلمان عن أبي. الرجل العنيد يبتعد عنا. لامست المرأة شعري. انزلقت يدها الخشنة ملاطفة وجهي. تركت يد أمي وتمسكت بجانبها. قالت المرأة:

- لماذا هو محمدك حزين هكذا؟

نظرت إليّ أمي لافة معصمها حول عنقي. خفّ غضبي. قالت للمرأة:
- هكذا هو دائماً.

توادعتا. قالت لي أمي:

- بس يد للاً لويزة (بست يد السيدة لويزا طائعاً).

بطن أمي ينتفخ. أحياناً لا تذهب إلى السوق تقيء عدة مرات في اليوم. شاحبة. ساقاها تؤلمانها. تنتحب. ينتفخ وينتفخ بطنها. أخشى أن ينفجر. لم يعد يؤثر عليّ نحيبها. أقسو وأقسو وأحزن. نسيت اللعب. حملوني في ليلة ناعساً إلى بيت آخر. نمت مع ثلاثة أطفال. قالت لي الجارة الأرملة في الصباح.

- ها أنت لك الآن أخت. كن لطيفاً معها.

تزوره في السجن مرة في الأسبوع. تعود أحياناً منتحبة. بدأت أدرك أن النساء يبكين أكثر من الرجال. يبكين ويكفزن عن البكاء مثل الأطفال. أحياناً يحزن حين يفكر الواحد أنهم سيفرحن ويفرحن حين يفكر الواحد أنهم سيحزنن. متى يحزنن ومتى يفرحن؟ رأيت أمي مرة تبكي باسمه. أهي حمقاء؟

أبقى في الدار أحرس أختي أرحيمو. أعرف كيف أضاحكها، لكني لا أعرف كيف أسكتها عن البكاء. أضيق فأخرج. أتركها تبكي وتعارك نفسها بأطرافها المعوجة مثل سلحفاة مقلوبة على ظهرها. حين أعود أجدها نائمة أو باسمه. غالباً نائمة. الذباب يقفز على وجهها الذي نمشته عضات الناموس. في الليل الناموس وفي النهار الذباب.

أختي تنمو. أمي يقل بكاؤها وتذمرها. أنا أزداد شراسة، مع أمي أو مع أطفال الحي. إذا انهزمت معها أو معهم أكرس الأشياء أو أسقط على الأرض صارخاً وأعارك نفسي باكياً شاتماً إياها أو الأطفال.

سألتها:

- هل المرأة أيضاً يمكن أن تدخل السجن؟

- لماذا؟

- إنني اسأل.

- نعم. هي أيضاً إذا فعلت شيئاً قبيحاً مع الناس.

بدأت تأخذنا معها إلى السوق. أختي ترضع من صدرها وأنا، في معظم الأحيان، أبحث عن غذائي بعيداً عنهما في السوق أو في أزقة المدينة القديمة. أستعطي وأسرق. أقول لها حين تلومني عن غيابي:

- سوف أهجّر هذا البيت القذر. لن أعود إليه أبداً.

- أنت هكذا إذن يا هذا الخنفس. أنت هكذا إذن من الآن. ماذا أقول

عندك عندما تكبر...؟

ذات صباح فاجأنا في السوق الكبير مصحوباً بجارة لتدله عن مكان أمي. انتحبت أمي في السوق وفي الدار. لماذا تنتحب من أجله؟ إنه قاس وشريير. في تلك الليلة غلبني النوم قبل المعتاد وتركتهما يتشاكيان.

في الصباح لم تذهب إلى السوق. ذهبت إلى الحمام العمومي. تزينت وسوّكت فمها وكحلت عينيها. رأيته مسرورة في ذلك الصباح. هكذا إذن. حين خرج أبي رأيته تنتحب رغم زينتها. فكرت: لم أر امرأة بكاءً مثلها حتى الآن. سألتها ما أبكاها. أفهمتني أن أبي خرج ليفتش عن الجندي الواشي لبيتقاتلا. فرحت. أتمنى أن يعثر أبي على ذلك الجندي الواشي ويقتله حتى يطول غيابه مرة أخرى. أن يقتل أحدهما الآخر. هذا ما أتمناه. أحب غيابه حياً أو ميتاً.

عاد حزينا في المساء. فاحت منه رائحة مخمورة. سمعت أمي تقول له:

- شربت، أليس كذلك؟

دمدم بكلمات واسترخى حزيناً ومتعباً. هو حزين لأنه لم يعثر على غريمه وأنا حزين لأنه عاد. سمعتهما يتحدثان عن رحيلنا إلى تطوان. لم تكن لنا غير حجرة واحدة. تركتهما يتحدثان بحزن ونمت.

في الليل أيقظتني مثناتي الممتلئة. قبلات تصفق. لهاث يتلاحق. همسات حب. إنهما يحبان بعضهما. اللعنة على حبهما. لحم يصفق. تفو؟ إنها تكذب. لن أصدقها بعد اليوم.

- فمك.

- ها أنا. ليس بعنف. ليس هكذا. انتظر.

ماذا يفعلان؟

- أقول لك هكذا.

سأهبط لأنام على الأرض.

يصفعها. ماذا يفعلان؟

- بنت الزناء.

- كلا. كلا. تؤلمني (آذان اينو). مصارينى. هكذا. هكذا أحسن. لا. لا.

ليس هكذا. نعم هكذا.

لا بد أن يكونا مصابين بالحمى. لهاث. قبلات. تأوهات. لهاث. قبلات.

لهاث. قبلات. تأوهات. يعضان بعضهما. يأكلان بعضهما يلعقان دمهما...

- م م م....!

يطعنها. تأوه طويل خفيض. شهيق. قتلها. أحس مثناتي تفرغ. السائل

الساخن يندفق بلذة بين فخذى.

قبل رحيلنا بيوم رأيت الفتاة التي حررتني من الحبس وأعطتني الخبز

المعسل. أخبرتها برحيلنا إلى تطوان. أخذتني معها إلى منزلها ماسكة إياي

من يدي. أكلت الخبز الأسود بالعسل الدافئ والزبد. أعطتني تفاحة كبيرة ذات حمرة طفيفة. ملأت جيوبي باللوز. غسلت لي وجهي وأطرافي. كنت أراها الأصغر؟! ابنها؟ مشطت شعري المنفوش. قصت لي منه ويدها الملساء والدافئة تلامس وجهي ورأسي. عطرنتني. شممتني. أرتني وجهي في مرآة صغيرة ذات إطار فضي. تأملت وجهها أكثر مما تأملت وجهي. أمسكته بين يديها كما تعودت أنا أن أمسك عصفوراً حتى لا أولمه. تارة تضغط بلطف على وجهي وتارة تهدده. ودعتني بالقبلات على خدي. باست فمي. فكرت فيها مثل أخت لم تلدها أمي.

في يوم رحيلنا تذكرت قبر أخي. سيظل قبره بلا سقي، بلا ريحان، بلا بناء، قبر أخي سيضيع كما تضيع الأشياء الصغيرة وسط الأشياء الكبيرة.

1. في تلك الأيام كان عامة الناس يسمون كل أوروبي نصرانياً، ويعتبرون كل عربي يتكلم العربية مسلماً. كلمة المسلمين هنا تعني المغاربة.

2. السوق الكبير يقابله السوق الداخلي أو الصغير، بمدينة طنجة

3. أماه! أماه!

4. تستعمل هذه الكلمة عند عامة الناس بمعنى عدم الفطنة.

5. الكرنب

_ 2 _

عثرنا، في حيّ عين خباز، على مسكن في جوار بستان. حجرة واحدة
مرحاض خارج الحجرة.

عادت أمي تبيع الخضر والفواكه في حيّ «الطرانكات». أبي يستلذ
البطالة في ساحة «الفدان» مع المغاربة معطوبي الحرب الأهلية
الإسبانية. كان بعضهم يفخر بها لأنها أتاحت له أن يغامر وأن تكون له
ذكريات عن المعارك التي خاضها منتصراً أو مهزوماً. وكان الكاوديو
يُسمى بينهم الحاج فرانكو.

أنا أتسخر لجيراننا الإسبانيين. أختي أرحيمو تتكورّ على الأرض
وتحاول أن تستوي ماشية. أضاحكها وألاعبها، لكن حين توسخ ثيابها
بالرائحة الكريهة أتركها وأهرب بعيداً حتى تعود أمي من السوق. أحياناً
يغيب أبي يوماً أو يومين. حين يعود يتشاجران. غالباً ما كان يدميها.
لكنني في الليل أسمعهما في الفراش يتضاحكان ويتأوهان بلذّة. بدأت
أعرف ما كان يفعلان. إنهما ينامان عاريين ويتعانقان. هذا ما يصلحهما
إذن. عندما أكبر ستكون لي امرأة. سأخاصمها في النهار بالضرب والشتم
وأصالحها في الليل بالعري والعناق. أنها لعبة جميلة هذه ومسلية بين
الرجل والمرأة.

عثر لي أبي على عمل في مقهى شعبي في نفس الحي. صاحب المقهى
مبتورة يده اليسرى. قدمني إليه أبي:

- ها هو ذا ابني. إذا اعتدى عليه أحد السكارى أو الحشاشين بما لا يليق
به فسوف أزهدك له روحه. أنت تعرفنا نحن الريفيين. إننا لا نصبر

كثيراً.

- كن هاني يا السي حدو. ماكاينشي اللي يمسو.

أعمل من السادسة صباحاً حتى ما بعد منتصف الليل. كل شهر يجيء أبي عند صاحب المقهى. يقدم له كأس شاي ثم يطعيه ثلاثين بسيطة عن عملي. يناديني مخدومي لكي أتقدم أمام أبي وأبوس له يده. يقول لي:

- لقد قبضت ثمن عملك. الله يرضي عليك.

لم يكن يعطيني شيئاً من الثلاثين بسيطة. في اليوم الذي يقبض فيه أجرتي يغيب يوماً أو يومين. أحياناً يعود ثملاً. أسمع أمي تلفظ كلمات القحاب والسكرارى. إنه يستغلنا أنا وأمى. صاحب المقهى يستغلني أيضاً لأن هناك غلماناً مقاهي يتقاضون أكثر من راتبي. سأسرق كل من يستغلني حتى ولو كان أبي وأمى. هكذا صرت أرى السرقة حلالاً مع أولاد الحرام.

للمقهى زبناؤه النهاريون وزبناؤه الليليون. في أيام العطل يلتقي النهاريون والليليون. يتحدثون عن حياة النهار والليل.

أدخن الكيف والسجائر في الخفاء. حين أتسخر لأحد زبناء المقهى يعطيني "سبسيًا" من الكيف أو كأس خمر أو قرصاً من معجون الحشيش. تقيأت هلاماً أصفر أخضر عدة مرات. مرضت. في أيام المرض بدت لي الحياة غريبة. المرض يعمق الوحدة. الإنسان يحب نفسه أكثر في الوحدة. أدركت أنني لست سوى أنا. وحدي أراني في مرآة نفسي. العالم يبدو لي مرآة كبيرة مكسرة وصدئة أرى فيها وجهي مشوهاً.

رواد المقهى يشجعونني على تدخين الكيف وأكل معجون الحشيش. قال لي أحدهم: "القيء لا يحدث إلا في المرة الأولى." صدق الحشاش. لم أعد أتقيأ وأمراض. شربت نبيناً لأول مرة. تقيأت. مرضت. قالوا لي أيضاً: "هذا لا يحدث إلا في المرة الأولى." إنهم على حق هؤلاء الحشاشون والسكرارى.

لم يكن صاحب المقهى يعترض على سلوكي. أدركت أن ما يهمله هو ما يربحه من المال. هو أيضاً يسكر ويتحشش. كنت أفكر أحياناً: أمن أجل هذا يولد الإنسان ويعيش؟ أوه! كلا. هناك الجنة والنار، كما قالت لي أمي.

أحياناً أنام في المقهى فوق المقاعد. أحياناً أنام في المخبزة الإسبانية المجاورة للمقهى. ذات ليلة رأيتهم يمزحون: أمسك خمسة أو ستة من الخبازين بالخباز اليزيدي وطرحوه على الأرض. كمموا له فمه بخرقة من القماش حتى لا يعرض. أنزل واحد من رفاقه سرواله وحك باسته وعضوه التناسلي وخصيته أنف اليزيدي. أهكذا يمزح الناس؟ خرجت من المخبزة خائفاً أن يحدث لي مثلما حدث لليزيدي أو أكثر. فضلت الخوف في طريقي إلى منزلنا. كنت أغامر. لقد سمعت كثيراً عن الاغتصابات الجنسية التي تحدث للفتيات والصبيان. الطريق إلى سكننا مظلم، مخيف في الليل.

مسكن صاحب المقهى ملاصق لمقهاه. أحياناً يبدأ سكره في المقهى وينتهي في بورديل المدينة حتى اليوم التالي كما يقول عنه رواد المقهى. أحياناً يتغيب أكثر من يوم في بورديل **6** المدينة أو في بورديلات مدن أخرى.

في غيابه أضعف سرقتي له. إن معلم الوجاق يغلبه النعاس في الليل والنهار. كنت أقبض الفلوس من الرواد وأضعها في صندوق خشبي فوق الحاجز. حين يضيّق المعلم يأخذ الفلوس ولا يحاسبني. بدأت أدخل داره متى أشاء. أكل مع أولاده. أنام معهم في حجرة واحدة عندما لا يضطرنني السكر إلى النوم في المقهى. زوجته تتزين أكثر من مرة في الأسبوع بالقفطان والحلي ولا تبيت في المنزل أو تعود بعد منتصف الليل. امرأة سمينة وقمحية البشرة. وجهها مستدير وصدرها كبير وأردافها أبرز ما في جسمها. حين تكون لابسة ثوباً خفيفاً جالسة وتنهض تبدو كما لو أنها خرجت من الحمام. إنها امرأة تعرق كثيراً. أتأمل جسدها وهي تبتم لي.

تخاف؟ كما تلتفت! تتمهل في المشي كأنها تمشي على البيض تخاف أن تكسره. تقف على عتبة درجات السلم كأنها الوحيدة في هذا العالم. تفك حزام منامتها. لم أعد أرى سوى جسمها. تنفتح المنامة الوردية مثل جناحي طائر يريد أن يطير ولا يطير. ينبثق بياض أعلى جسمها إلى رديفها. يدوخ رأسي بلذة. أنبهر. تسقط التينة من يدي. أبلع التي في فمي. سلّتي تميل. يسقط نصف محتواها. يبزغ قرص الشمس القرمزي يحفه النور مثل بيضة مكسورة في صحن أزرق. تسبح الكائنات. يصفر عصفور والحمام يهدل وديك يصيح ونهيق حمار يغطي كل الأصوات التي لا أراها. لا أرى سوى تلك التي... تتعري. أسية تتعري. أتخيل الوجود كله يعري: الأشجار تسقط أوراقها، الناس يعرون، الحيوانات يسقط عنها زغبها وشعرها. تنزلق المنامة على جسدها. تعرت. أسية تعرت. ابنة صاحب البستان تعرت. ما أضوا ما في جسمها! صدرها ملآن. ثمرتها منتصبان. زغب أسفل سرتها أسود مخيف وجميل. يؤلمني انتصابي. تخطو خطوتين فوق عتبة الصهريج. هياجي يشتد. شعرها الأسود يغطيها من الورا. تنحني. على كتفيها ينسدل سالفها إلى الأمام. تعرت من الورا. ينفث لحمها الأبيض من الورا عن ظلمتها الخفيفة. يتعسل فمي. يتدغدغ. يؤلمني جسمي بلذة. رعشة حلوة وقذف لذيد أرخياني حالماً مستنداً على فرع الشجرة. ملت وكدت أهوي. متمهلة تهبط درجات السلم اللزجة. تتأمل الماء. تبلل حشيش إبطيها الأسود وصدرها الأبيض المنتصب. ترش فجوة الفخذين. ترش كل جسمها وتقفز. أنزل. بحذر أمشي على أربع. أخبئ منامتها بين الأعشاب قرب الصهريج. أعود فرحاً فوق الشجرة. مبتسماً أنتظر ما سيحدث. أكل التين بفرح وشراهة. نسيت البيع والشراء في الحي. تسبح مثل سمكة. تغوص وتطفو مثل بطة النهر. مثل عروس البحر، التي سمعت عنها، تظهر وتختفي. يضح البستان بالأصوات الجميلة والقبيحة. كل شيء جميل: على بطنها، على ظهرها، على جانبيها، على رأسها وواقفة مثل زجاجة في الماء غائصة وطافية. ما أجمل أن تظن أن أحداً لا يراها!

تصعد مرتعشة. تندهش. تحمي صدرها بذراعها اليسرى وباليمنى
أسفلها. تفتش بحيرة وخوف. موتي! تلتفت هنا وهناك باضطراب. موتي!
تعثر على المنامة. تلبسها هاربة. يختفي بياضها. أضحك بجنون. الحمار
من جديد ينكر كل الأصوات.

حلمت ليلاً أسية تفسخ حزامها. تطفو عارية. تنساب مثل النونة في
قاعة الصهريج. حلمتني أعوم معها. تحتها. على جانبيها. نقف في عناق ثم
نغوص إلى قاعة الصهريج لننام دون أن يقهرنا التنفس.

رأيت الطفلة مناة ترفع ثوبها وتقعى طويلاً تحت شجرة صغيرة.
حرصت أن أراها ولا تراني. لماذا شيئا الوردي لا زغب له؟ شيئا الصغير
يبشع إذا هي انحنت: مثلما هو الفم الذي بلا أسنان شيئا بشع. دخلت على
جارتنا في دارها لأطلب منها شيئاً لأمي. وجدتها تبدل ثيابها الداخلية:
بطنها بارز بشع، متهدلان ثدياها. لحمها مترهل. إذا هي أجسام النساء
ليست مثل جسم أسية فإن جسم المرأة بشع، بشع، بشع!

قضبي يدغدغني كل يوم. أهدهه بأصابعي كأني أهدهه ألم دمل
أنتظر أن يتقيح. ينتصب. يمتلئ. يستوي شيئاً فشيئاً حتى يحمرّ ويعرق
لاهنأ. صرت مشغولاً به وحده. أحس بألم في الخصيتين إذا لذتي لم تتم
في الاستمناء. أتخيل جسم أسية: أبوسها في الخيال، أمس صدرها
فتركني. تلاطفني باليد والفم.

أخبرتها بما جرى. راحت تجري ورائي. أقفز على ما يؤخرها ويعوقها
عن اللحاق بي. تعثرت. تكورت فوقي. نهضت لأهرب. أمسكتني. صفعتني.
بكيث. خجلت عيناها واستكانت. لاطفتني. دعوتها أن تأكل البيض
المسلوق معي. كنت أحضر في الأرض حفرة وأطمر فيها بيضات ملفوفة
في خرق مبلة أو ورق وأشعل فوقها النار. أكلنا البيض المسلوق
والفواكه وتركتها تحلم تحت ظلال شجرة تفاح وأنا جنبها أحرس
نعاسها. لا شك في أنها تحلم برجل. هذا ما سمعته عن النساء عندما

يحل من. كان لها أخ يصغرها ويصغرنى. أكل البيض معه أفضل والاستلقاء جنبه أكثر لذة وحرارة.

أستهلك كثيراً من علب الوقيد في ممارسة هوايتي الجديدة. أجلس على حافة الصهريج أرقب خروج النونات من جحرها. أقتل خمس أو ست وقيادات. أشعلها وأرشق بها النونات المناسبة. أظل أطارد انسياب النونة الهاربة بالشعلات حتى تدخل جحرها. تتلطف حدة مزاجي القلق بمنظر الشعلة في الهواء وانطفائها في الماء، انسياب النونة ودخولها في جحرها خائفة. افلتت شعلة من يدي وسقطت ورائي. لم أبال بها. أشعلت أخرى. لم أنتبه للشعلة الساقطة فوق السياج. سمعت القصب يطقطق. أحاول اطفاء النار بالحجارة وكل ما عثرت عليه من أشياء. حريق. أهرب. أختبئ في الإصطبل. أصوات أعرفها وأخرى لا أعرفها تستغيث بالناس والماء. أغوص في تل من التين مفكراً في سوء المصير. في الليل دخلت حظيرة البقر. أنهضت بقرة هولاندية. لاطفتها. داعبت ضرعها. تركتني أرضع. أتسكع نهاراً في الحي. في الليل أنام في الإصطبل. في الليلة الثالثة وقعت في شرك أبي بمساعدة بعض غلمان الحي الذين خصص لهم مكافأة. كسر الجيران مزلاج باب بيتنا كي ينقذوني أنا وأمي. كان يضربنا معاً بحزامه العسكري. جسمي كله دام. عين أمي متورمة. ظللت أياماً لا أعرف كيف أنام. تمنيت لو أستطيع النوم في الهواء.

عدت إلى العمل في المقهى وأكل معجون الحشيش وتدخين الكيف والسكر. دخلت إلى دار صاحب المقهى. ابنته فاطمة تغسل الثياب منحنية. منحسر ثوبها من الأمام. بدت لي أكبر مما تركتها. تكبرني. نظرت إليها. قساوة أبي علي توقظ شهواتي نحو كل ما هو جسدي. تلتفت إلي باسمه. ثوبها الخفيف أراه في الخيال ترفعه الريح. أسية أجمل، لكن فاطمة قريبة مني وأسهل. الأخرى صارت ذكرى عابرة. رفعت رأسها، قبضت بيديها على خصرها، تألمت، تمططت. فخذها ممتلئتان عاريتان. أطلقت ثوبها على ركبتها. دنوت منها في خيالي. أعدت انحسار ثوبها في

الخيال. أشعلت النار في ثوبها. استسلمت بلذة للهب الذي يحرقها من الأسفل. جميل عريها من خلال شعلة النار تلك. قالت بحدة:

- ماذا تريد؟ أحالم أنت هذا الصباح؟

قلت بخيبة:

- نفذ السكر في المقهى.

تأملتنى. قالت بصوت قوي:

- ألا تعرف أين يوجد السكر؟ (أضافت لنفسها بصوت خفيض): لم يبق في الحساب إلا أنت.

نظرت إليها بخبث. قالت مستغربة:

- مالك اليوم؟ إنك غريب اليوم. سأقول هذا لأبي.

مضيت إلى حجرة المأونة الصغيرة خافضاً رأسي. أخرج السكر. تنظر إليّ باهتمام. أختلق أسباباً كاذبة عندما أعلم أنها وحيدة في المنزل. أعريها بنار خيالي متى أشاء. هي تعودت على مجيئي الكاذب. أنا فهمت عبوسها المصطنع. نتناظر أكثر مما نتكلم. في ليلة باردة أنجذب جسمي إلى جسمها. تدفأنا ولعبنا بجسدينا. تغطينا بجسمينا. انزلقنا على بعضنا. ألأمسها بلطف وفي الخيال أصفعها حتى يصفق اللحم. وجهها تحت وجهي. يطل علي وجهها من فوق.

وضعت أمي صبيلاً. أختي أرحيمو صارت تستطيع أن تحرس أخاها عاشور. ذات مساء شربت النبيذ وتحششت في المقهى. جلست خارج القهوة أستهوي. أتأمل نجوم السماء ونجومي حين أغمض عيني. نهزني مخدومي:

- قم واعط لذلك السيد كوب ماء.

حالمًا نظرت إليه. الملعون. أطفأ نجومى.

- وأنت؟ ماذا تفعل أنت هنا؟ أعطه بنفسك.

صفعني مخدومي وهربت. تلك كانت آخر ليلة لي في المقهى. سرت في الظلام وطيور الليل في رأسي. لم أخف من الأشباح: لا من الإنس ولا من الجن. في الطريق المظلم جريت وراء قط أو أرنب!

بعد أيام من عيد الأضحى صحبت أمي إلى النهر المجاور للبستان. غَسَلْتُ جِزَةَ الكَبْشِ وأشياء أخرى. في الليل سمعتها تقول: الله! نسيت السكين التي كنت أنظف بها الجزة. نسيتها فوق الصخرة.

لم أقل لها شيئاً. خرجت أجري نحو النهر. وصلت وعثرت على السكين. أمسكتها في يدي بحركة كأني أواجه مبارزة. نظرت نحو الضفة الأخرى. شبح قادم إلى النهر. كنت قد سمعت أن من يرى جنياً ويغرز السكين في الأرض يبقى الجنى محبوساً في مكانه. غرزت السكين في الأرض بقوة. عدوت وركبتي تخذلانني. سقطت ونهضت. لم أستطع الصراخ ولا الالتفات. أحسست أن مجرد التفاتي إلى الورا سيقبض علي المسخ الذي رأيته. أتعثر وأنهض وأجري حتى وصلت إلى الدار وقلبي في حلقي.

مرضت حتى ظنوني سأموت. جاء إلى منزلنا شيخ يخرج العفاريت من الأجسام. أمر الرجل أمي أن تذبح فروجاً أسود ثم يطاف بي، محمولاً، سبع مرات حول بئر حوش الدار.

بعد شفائي قصصت على رفاقي الصغار ما حدث لي. كلهم صدقوني. بعض الكبار قالوا ربما يكون الشبح الذي رأيته رجلاً بدوياً كان عائداً إلى منزله في تلك الساعة، لكن أكثرية الناس كانوا يصدقون حكايات ظهور العفاريت. إن الجنى هو جندي من جنود الله يجازون الناس بما يستحقون من خير أو شر.

عثر لي أبي على عمل آخر في معمل الأجر بخمس وعشرين بسيطة في الأسبوع. أذفع عربة يد مشحونة بالطين أو القرميد ثماني أو تسع

ساعات في اليوم. انسلخت راحتاي ودميتا وكنبتا. خشن وجهي في الشمس والغبار واشتد جسمي مثل مثل طبل.

انتقلت إلى عمل آخر في معمل الفخار. كان عليّ كذلك أن أدفع نفس عربة اليد ثماني أو تسع ساعات في اليوم. في هذه المرة كنت أنا الذي أقبض أجرتي. أعطي منها نصفها إلى أبي مقابل الأكل وغسل ثيابي والنوم في المنزل. ثرت على عربة اليد. قلت لأمي في غياب أبي:

- أنا لم أعد حماراً. الحمار هو الذي يظل يحمل دائماً الأثقال أو يجرها.

- وماذا ستعمل؟

- أنا أعرف ما سأفعله.

وقال لي أبي وقت الغداء.

- إن الأكل والنوم في الدار يكلفان مالاً. إذا لم تعمل فلا يوجد أكل ولا نوم. هل تفهم ما أقوله؟

قلت له خافضاً رأسي:

- نعم.

وفي خيالي: وأنت، ماذا تعمل؟ أليست أمي هي التي تبيع الخضر في حي الطرانكات؟

غادرت معمل الفخار واشترت صندوقاً من ماسح أحذية. أطوف على المقاهي والحانات. ألتقط الأعقاب، أشرب ثمالة كؤوس الخمر والمشروبات الغازية وبقايا الطعام في الصحون الصغيرة أجمعها قبل أن ينظف النادلون الطاولات في سطيحات الحانات. الذين أمسح لهم أحذيتهم لا يروقههم عملي. لم أكن أتقن حرفتي، الفرجون يسقط من يدي عندما أنقله إلى اليد الأخرى بتلك السرعة التي يتقنها المحترفون. أيضاً يضايقني حسد وسخرية الذين يتقنون هذه الحرفة. كثيراً ما كنت

أتضارب معهم. تصاحبت مع بائع صحف، في سني تقريباً. تركت حرفة
مسح الأحذية وصرت أبيع صحيفة دياريو دي أفريقيا (Diario de
Africa).

6. بيت الدعارة.

_ 3 _

انتقلنا إلى حي الطرانكات. أعين أمي في بيع الخضر والفواكه. أنادي بصوت صاخب على المشتريين بالإسبانية: **Vamos a tiarar la casa!**
por la ventana

!Quien llega tarde no come carne

Debalde! Debalde vendo Hoy.

كل مساء آخذ لنفسي، دون علم أمي، النقود لشراء معجون الحشيش والكيف والجلوس في المقهى والدخول إلى السينما. التقيت صديقي التفرسيتي. كان حزينا. قال:

- عمي مات.

- مسكين.

- قتل نفسه وزوجته وثلاثة أولاده.

- كيف حدث ذلك ولماذا؟

- قضاوا أياماً بدون أكل. لم ير هو وزوجته أن يطلبوا من أحد الجيران شيئاً من القوت. بنياً، من الداخل، باباً آخر من الحجر والطين وماتوا.

- يرحمهم الله.

- اشترينا نصف زجاجة من الماحيا [7](#) وشربناها عند حافة جبل درسة.

اتفقنا أن نذهب إلى الماخور.

قالت لنا للأحرودة، التي نعتبرها، نحن المراهقين، معلمة في النكاح:

- يظهر أنكما شربتما، أليس كذلك؟

- نعم، لكنك أنت جميلة ونحن نريدك.

ابتسمت وهي تفحصنا. وجهها يلمع بالمساحيق وعيناها مكحلتان. نظر إليّ رفيقي. أكدت للمرأة أننا لم نشرب كثيراً. فقط نحن مرحان ونريد أن ننعم معها كما فعل رفاقنا في الحي. هي تفحصنا بنظرات باسمه ونحن نخاف أن ترفضنا. قالت:

- طيب، من سيبدأ الأول؟

نظرت إليّ رفيقي. قال:

- أرجو ادخل معها أنت الأول.

طلبت مني أن أدفع لها المال مقدماً. لم أتردد. هي تبيع جسدها ونحن نشتره. أخذت تتعري واقفة. السيجارة في فمها. دخانها يجعل عينيها ناعستين. شفاتها شهوانيتان، حمراوان. قالت لي:

- افتح فمك.

كنت خائفاً منها. فتحت فمي طائعاً. وضعتُ سيجارتها في فمي باسمه. أدارت لي ظهرها. فككتُ لها رافعة صدرها متأملاً بشهوة الزغب الخفيف عند منبت ظهرها. تستدير وتواجهني باسمه رافعة نهدتها بيديها. استعادت سيجارتها إلى فمها باليد الأخرى. ابتسمت لها خوفاً من جسدها. فكرت: جعلت من فمي منفضتها.

- دخن. ألا تدخن؟

أخرجت سيجارة بحركة سريعة، مضطربة. قالت:

- انزع ثيابك. مالك خائف؟

قضيبي منتصب. شرعت أفك أزرار بنطالي باضطراب. قلبي يخفق بعنف. أسية وفاطمة لا خوف منهما، لكن العلاقة معهما ليست إلا انزلاقاً والتحاماً مسطحين. هذه المرأة ستتركني أدخل في لحمها كما تدخل السكين في اللحم. سأجرح لها فرجها.

استلقت على الفراش. يفتح مقصها. شيئا حليق. تذكرت مناة تبول. أمسكت قضيبي في يدها منتصباً. فكرت: وإذا كان لفمها الأسفل أسنان! أدخل بين فخذيها بحذر وخوف. تضغط عليّ بساقيها من الخلف. تضمني إليها. قالت منزعة:!

- أنت لا تعرف بعد حتى كيف تدخل في المرأة.

لم أعرف ما أقوله لها، لكنني فكرت في الكلاب التي تلتصق. شيئا ناشف. تبعدني عنها قليلاً. بصقت أناملها بلسانها وبزقت فمها الأسفل.

ادخل الآن...!

-

- مالك؟ ادخل أو قم من فوق. ادخل أقل لك.

وإذا كان لفمها الأسفل أسنان!

- لا تخف. لن آكلك. أنت جميل. أدخل.

دخلت فيها بحذر وخوف وأنا أفكر في الكلاب التي تلتصق. غصت في فمها المخاطي. ينفلت فمها الزبدي. لقد تزبد الآن.

- آي آي آي! ليس هكذا. من أجل هذا أكره النكاح مع الأطفال. لا

تلمسني هناك. لا شك في أن هذه أول مرة تنام فيها مع امرأة.

لم أقل لها شيئاً. أوشكت أن أقول لها بأنني قد لعبت بجسدي في الحي مع رفاقي. لم ترد أن تعطيني فمها. تعطيني خدها. نهداها ينفلتان مني. إنها مثل سمكة تنزلق في اليد. تنزلق لي يدي من على صدرها.

- آخ آخ! إنه لحمي يا ولد وليس حلفاء. أنت ما زلت صغيراً لكي تفعل
مثل هذه الأمور كلها مع امرأة.

فاطمة أجمل من للأحرودة التي لا تتركني ألمس نهديتها. مع ذلك
أعطتني فمها وصدرها. لم يستغرق الدلك المخاطي طويلاً.

- هيا، إنك انتهيت. لقد أتى دور رفيقك.

دفعتني عنها. أنسحب وقضيبي يقطر.

- أووه، ليس هكذا. إنك تلوث لي الفراش. انتظر حتى أريك كيف
ينبغي لك أن تنسحب.

إنها حمقاء هذه المرأة. أليست هي التي أمرتني أن أقوم من فوقها؟
تضع منديلاً في جرحها. تدير لي ظهرها. أشتي أيضاً مؤخرتها. فكرت:
صحيح، إنها معلمة الجماع كما قيل لنا، لكنها تشكو كثيراً.

- ها أنت قد نمت مع أول امرأة. أليست أنا أول امرأة تنام معها؟

ابتسمت وهزرت لها رأسي.

- ستفكر دائماً في هذه الدخلة معي.

ما زال منتصباً.

- هيا، ماذا تنتظر؟ اغسل والبس بسرعة. صديقك ينتظر نوبته.

غسلته في الطشت ولبست بنطالي وهو ما زال منتصباً. يرتخي
وينتصب.

سألني رفيقي التفرسيتي:

- كيف هي؟

- رائعة. بلا أسنان.

اندهش:

- ماذا؟ أليس لها أسنان؟

- لا أقصد أسنان فمها. إن فرجها لا يعض. إنه يقبض ويمص لكنه لا يعض. ستري بنفسك. إنه دافئ ولين.

قالت من الداخل:

- هيا، ادخل أنت الآخر.

فكرت: شيئها ليس جميلاً، لكن دفأه لذيذ. إنه يدفئ الجسم كله، يزيل الدوخة، لكن من الأحسن أن أدخل فيه دون أن أراه.

تعودنا أن نتردد ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع لنكتشف امرأة جديدة تقبل أن ندخل معها. بعضهن يرفضن. كلهن تقريباً، يتشابهن في الفراش: "هيا، انتهِ بسرعة!" كنا نعود عند اللواتي يعطينا شفاهن ونهودهن ويتركنا نضل الحب معهن على مهل. قلت للتفرسياتي:

- النعاس مع امرأة بلا تقبيل الشفتين وضم النهدين باليدين ليس نعاساً كاملاً:

- هن لا يعطين كل شيء إلا للكبار. وأحياناً حتى يضربهن الواحد.

- هذا صحيح. وهل نحن ما زلنا صغيرين؟ كل من ينتصب عضوه فهو رجل.

- هذا صحيح:

- هذا المساء سنذهب عند الإسبانيات.

في بورديل الإسبانيات لم تقبلنا الشابة الأولى. قالت لنا:

.Uno solamente Nada de dos

قلت للتفرسياتي:

- أدخل معها أنت إذا شئت.

- كلا. إما أن ندخل معها أو لا شيء.

قال:

- تمشي تخراً

- إنها جميلة وشابة.

- صحيح، لكن تمشي تخرا في ثيابها. تمشي تخرا وهي وشبابها. هناك أخريات أجمل منها، ستري.

ذهبنا عند ثانية. أكبر سنّاً قليلاً من التي رفضتنا. أكثر هدوءاً من الأخرى. تبدو طيبة وجميلة. لكن الشابة الأولى أجمل. فكرت: تفو على الجمال المتكبر!

- ماذا تقول لها؟

- لا يهم. لا بأس بها. المهم هو أن تقبلنا وتكون لطيفة معنا. تفو على تلك الشابة الأولى!

سمينة قليلاً.

- لا يهم. سنجرب معها. بعد ذلك سنبحث عن أخريات أجمل منها.

فكرت: الجمال عذاب.

لعبنا، هذه المرة، وجه الفلس وقفاه. ربح رفيقي. سيدخل هو الأول. تردد وقال لي:

- محمد، أدخل أنت الأول معها. هذا أفضل. أنت تعودت أن تدخل الأول.

دخلت ونادت:

- أنطونيو! هات ماء وفوطة.

أطل علينا ثم اختفى. جاء بماء وفوطة. ورموش عينيه مكحلة، وجهة مُجَمَلٌ بمسحوق وردى، ثدياه بارزان، بنطاله مشدود على مؤخرته. قالت

لي المرأة.

- ألا تعطيه شيئاً؟

أعطيته بسيطتين. أردت أن أدفع لها مقدماً الخمس عشرة بسيطة.

- لا. لا. في ما بعد. هل أنت ستهرب؟

غسلته بالماء الدافئ والصابون. ضغطت عليه من منبته إلى حشفته وفركته في يدها. المغربيات لا يغسلنه ولا يضغطنه في أيديهن. في ما بعد عرفت أنها طريقة لمعرفة هل العضو سليم أم مريض! لم أستطع أن أمنع انتصابه في يدها. ابتسمنا. قالت باسمه:

- إيريس فويرتي هي! Eres Fuerte! Eh!

تعرت من كل ثيابها. شيئها ليس حليقاً. المغربيات يحلقنه. انتظرت أن تغتسل هي أيضاً. لم تفعل. تمددت على الفراش رافعة ساقها، ضامة فخديها. لماذا يسترن شيئهن؟ شعرها نابت في شكل لسان حتى بلغ سرتها. أهي لم تغتسل لأنها تعرف أنها جد نظيفة؟ ثدياها صارا الآن مثل خبزتين صغيرتين مدورتين. لم تقبض علي بمقصها. تمددت مثل تونة كبيرة. سمعت أن النبي يونس ابتلعه الحوت. ثنت ساقها تحت الساق الأخرى. نظرت إلى انفراج ساقها. وضع غريب علي. تركتني أقبليها في فمها بلطف. فمها حلو وحاد ورائحة عطر تبعث من خلف أذنيها. تألمت:

- آي آي! لحظة. سل شيئك. سأغير وضعي. هذا الوضع يبدو أنه لا يلائمك. ربما يلائمك هذا.

غيرت وضعها. خفت ألا تتركني أدخل فيها مرة أخرى. أعجبنى الوضعان معاً. تركتني ألمس نهديا برفق. حينما ملأت فمي بنهدها ولساني يدغدغ حلمتها قاومت رغبة حتى لا أعضها. لم تكن مستعجلة. ضايقتني زغبها في حشفته.

سألني ريفقي:

- كيف هي؟

- أحسن من كل الأخريات. تعطي جسمها كله. نظيفة ومعطرة. ليست مستعجلة مثل الأخريات.

- صحيح؟

- ستري بنفسك. أتمنى أن أموت فوق جسد امرأة مثلها.

في الليل حلمتني أرضع نهد امرأة. حليبها يفور في وجهي حتى كدت أختنق.

مات أخي عاشور. لم أحزن على موته. كنت أسمعه يصرخ وأراه يحبو، لكني لم أكن أفكر فيه. ملذات جسدي ألهتني. أختي أرحيمو أيضاً أراها تكبر وتتكلم، لكني لم أكن أهتم بها. كنت غارقاً في همومي وتشردتي، حالماً بملذات العالم. أنام في الدروب أكثر مما أنام في المنزل. سلفت لي أمي مبلغاً من المال. بدأنا، أنا والتفرسياتي، نشترى الخضر والفواكه من المخازن ونبيعها في حي الطرانكات. في موسم العنب نشترى منه عدداً من الصناديق ونبيعها في أسواق البوادي.

لم تكن تدوم طويلاً هذه التجارة. كنا ننفق كل ما نربحه في شرب الخمر والنوم مع نساء ماخور حي "السانية". في فصل الشتاء نتحسر كثيراً على إسرافنا. كنا نسرق أو نحمل حقائب المسافرين في المحطات.

بدأ أبي يستعد للرحيل إلى وهران ليزور إخوته الذين هاجروا من الريف أيام المجاعة وظلوا هناك.

كانت أختي أرحيمو قد بدأت تجلس مع أمي في الدكان لتحرس البضاعة من اللصوص الصغار. ذات مساء شتمها وصفعها بطل حيننا كوميرو. كنت أدخن الكيف في مقهى السي "موحند" عندما جاءني رفيق ريفي بالخبر:

- كوميرو أهان أختك وطفها. حاول أن يسرق لها رأس كرنب.
أمك ليست في الدكان. لا بد أن تنتقم لأختك.

وجدت أختي تبكي. قال لي أصحابي الذين تجمعوا حولي:

- هو الآن في قهوة باب "التوت".

- لماذا لا تعارك ذلك القواد؟ إنك ستغلبه. نحن نعرفك في العراق.
لقد غلبه بوراس بضربة واحدة من رأسه.

- نعم، عاركه. إننا معك. لن يحميه أحد ضدك. من يعرف في حيننا
الضرب بشفرة الحلاقة مثلك؟

اشترت ثلاث شفرات حلاقة ووزعتها في جيوبي. ذهب أحد الرفاق
ليخبر كوميرو بالمبارزة في السوق الخارجي. وجدني هناك أنتظره.
كان معي أربعة رفاق. جاء هو محمياً باثنين. قال لي:

- هل تريد أنت أيضاً أن أحك لك الفليفة في إستك؟

بصقت عليه وبدأنا نتضارب بالأيدي. كان أقوى. يضرب بكل ثقل
جسمه. كنت أمامه مثل ريشة. أراوغه حتى لا يقبض علي بيديه. هذه
كانت حيلتي مع كل الذين تضاربت معهم. رفاقنا يراقبوننا ويشجعوننا
ولا أحد يتحامي. أصابتنى بعض لكماته. ابتعدت عنه فاقداً توازني.
أخرجت شفرة وبدأت أرقص حوله. بدأ يلهث. أفلحت له بضربات سريعة
وجهه وذراعيه وصدره. تركته يصرخ، يتلوى ألماً وهربت محمياً
بأصدقائي.

في تلك الليلة قبض عليّ أبي بمساعدة بعض رفاق الحي الذين كانوا
ضدي. في الواحدة صباحاً ركبنا الحافلة الذاهبة إلى الناظور.

توقفنا في "كتامة" لنشرب القهوة السوداء في مقهى شعبي. كان
صباحاً بارداً. تلك أول مرة أدوس فيها الثلج. أندافه على أشجار
الصنوبر. الرحلة شاقة. وجوه الناس عبوسة. الفقر في ثيابهم وفي

مساكنهم المبنية بالحجر والطوب. الأشياء الثمينة يملكها النصارى. كنا نأكل الرغيف الجاف والبيض المسلوق الذي بدأت تفوح رائحته المغشية. عبرنا نهر ملوية. النساء والأطفال يعبرون على أكتاف العبارين. أبي كانت له بطاقة التعريف الشخصية. أنا لم تكن عندي أية ورقة. كل الذين لا يملكون جواز السفر يضطرون إلى عبور هذا النهر بعيداً عن الجمرك. تارة نركب الحافلات وتارة نتابع الرحلة على الأقدام عبر البوادي عندما نقرب من أحد الجمارك.

في "وجدة" قضينا ليلة عند أسرة يعرفها أبي. في الصباح قتلت كثيراً من القمل في ثيابي. كنت قدراً. أسعل. لا أكف عن حك جسدي. الناس الذين يعرفهم أبي أكثر جوعاً منا. تفو على هذه الرحلة، رحلة الجوع!

7. نوع من الخمر يصنعه اليهود من التين أو التمر.

_ 4 _

وصلنا إلى وهران ليلاً. في حي "الطحكاحة" دَلْنَا رجل يتكلم الريفية على سكنى الأسرة التي يفتش عنها أبي.

استقبلتنا كلاب شرسة خرجت من الكهوف الأهلة. كاد يعضني كلب ارتمى على ساقي. أسيرُ أمام أبي. يهش على الكلاب بالحجارة. حين تقرب منا يستعمل العصا التي التقطها. يسب الكلاب ويسبني.

- امش أمامي يا هذا الخواف. امش لتأكل أمك القحبة.

تعثرتُ وسقطتُ. هوى عليّ بالعصا. عويت. شتمته في خيالي. يدفعني برأس العصا إلى الأمام. التقطت عُصِيَةً لأطرد بها الكلاب. أعفس على الحجارة الناتئة ونبات القراص. يضربني ويلعني جهراً، أضربه وألعنه في خيالي. لولا الخيال لانفجرتُ.

خرج رجل من كهف. تنادينا قبل أن يتعانقا: السي المصطفى - السي حدود كانت مغارة كافية ليعيش فيها شخصان فقيران. امرأته وجدناها تُصَلِّي. ملابس الرجل رثة، قاتمة، وجهه غير حليق، وثياب المرأة بيضاء، جدٌ نظيفة. المغارة تُضاءُ بفانوسين.

سألتني عن أمي وإخوتي الذين ولدوا في المنفى. أجبته تارة صادقاً وتارة كاذباً. من يستطيع أن يتكلم صادقاً أمام أبي؟ سمعت الرجل يسأل عن أحوال المغرب وحياة الريفيين الذين هاجروا إلى الشمال والجنوب. قال له أبي:

- حياتنا هناك في المدن الشمالية بائسة. العمل قاس في الأوراش والأجور هزيلة. التقحبن في كل مكان، لكن الريفيين لا يسمحون لبناتهم أن يدخلن البورديل.

- هنا أيضاً في وهران الحياة ليست سهلة، لكننا ما دمنا نستطيع الحصول على الخبز والبصل فإن كرامتنا ستظل مصنونة.

تألمت المرأة لموت أخي عبد القادر الذي تعرفه في الريف. كنت أود لو أقول لها إن أبي هو الذي قتله. قالت إنها تركتني في الخامسة أو السادسة من عمري في الريف.

- ها هي الآن قد مضت حوالى ثماني أو تسع سنوات.

هكذا قالت:

في اليوم التالي عثرنا على خالي "إدريس" وجدتي "رقية" في حي "الدوار الجديد" وعلى خالتي في حي سيريمين متزوجة بمراكشي. قالت لي جدتي:

- إنك كبرت. قريباً ستصير رجلاً وتتزوج مثل خالك إدريس. ستشتغل وتعينني على العيش. أليس كذلك؟

كانت هزيلة ومريضة.

تركني أبي مع خالتي وذهب يبحث عن إخوته في مدن أخرى بعيدة عن وهران. بعد حوالى ثلاثة أشهر وصلت رسالة تقول لنا إن أبي قد عاد إلى تطوان، وإنه من الأحسن أن أبقى أنا في وهران.

عثر لي زوج خالتي على عمل في مزرعة الفرنسية التي يعمل في إصطبلها. كنا نعمل في حقل الدوالي من الخامسة صباحاً إلى السادسة مساءً بسبب الساعات الإضافية. أحياناً نمدد القيلولة إلى ساعتين أو أكثر إذا لم يجيء مراقب العمل. أقود البغلين بالزمام في خط المحراث. هذا هو عملي. لوني يسمر، راحتاي تنكبان، جسمي ينحل ويشتد. الشيخ

الحرّاث، الذي أعمل تحت إمرته، رحيم بي على مزاجه: يقسو عليّ ويرفق بي حسب الظروف. أدركت أن شتمه إياي لم يكن إلا وسيلة لصرف تعب عمله الشاق. ما يؤلمني منه هو أنه يعايرني بأني قبائلي: "بلادكم لم تنجب سوى رجل واحد هو عبد الكريم الخطابي".

لم أكن أعرف بعد من هو عبد الكريم الخطابي.

عملت حوالى ستة أشهر في الدوالي. في أيام الأحاد أصطاد العصافير بالأفخاخ صباحاً وفي المساء أذهب إلى المدينة، مرة حاولت أن أطلع إلى شجرة ضخمة. تسلقت مراراً جذعها الأملس دون أن أستطيع الوصول إلى رأسها. ساقها طويلة وملساء. غضبت. من تكون هذه الشجرة؟ ذهبت إلى مرأب المزرعة وسرقت صفيحة نפט. أفرغت الصفيحة كلها على جذعها وأشعلت النار. منظر اللهب بدا لي رائعاً والجذع الأملس يخشوشن. تخيلت أن النار ستمتد وتمتد حتى تحترق كل الأشجار. تذكرت يوم أشعلت النار في سياج غرسة عين خباز. في ذلك اليوم لم أستطع أن أتفرج على جمال النار. الشجرة تحترق ولا أحد يأتي. مساكن المزرعة بعيدة. ها أنت الآن خشنة. أستطيع الآن أن أصعد إليك بسهولة. فكرت في الشجرة لو أنها امرأة. تذكرت يوم أحرقت ثوب فاطمة بنار خيالي. بحثت عن شجرة أخرى صغيرة. ملساء وجميلة. جذعها على قياس ذراعي حين أعانقها. رسمت على جذعها تصميم امرأة وشرعت في الخلق: سيكون لك ما للمرأة. خلال أسبوع حفرت في جذعها حفرتي النهدين، والضم وحفرة ما بين الفخذين.

الشجرة - المرأة.

أضع في الحفرتين برتقالتين مثقوبتين للمص أو تفاحتين للعض وإحداهما في الضم. في حفرة ما بين الفخذين أضع خرقة فيها زبد أو زيت. صرت أنقل إلى الشجرة - المرأة صور الجميلات.

قال لي زوج خالتي:

- غداً لن نذهب إلى الحقل. إن زوجة مراقب المزرعة، المسيو سيجوندي، تريد أن تراك. من المحتمل أن تعمل عندها في منزلها إذا أعجبتها.

فرحت، لكن هذا الشرط: "إذا أعجبتها... آلمني."

استقبلتني زوجة مراقب المزرعة بلطف. شابة، جميلة، متوسطة القامة، ذات سمرة خفيفة. ذكرتني رشاقة جسمها بقوام أسية. خجلت أمامها ووقحت في خيالي. موضوع جديد لأحلامي. كلمتني بالإسبانية. أجهدت نفسي باضطراب كي أتذكر الكلمات الإسبانية القليلة التي بدأت أنساها. أعطتني عطلة ثلاثة أيام وبعض النقود قبل أن أبدأ عملي معها. قضيتها متسكعاً في المدينة بين السينما والسيرك والمقاهي في حي المدينة الجديدة. كنت أحمل معي من المدينة زجاجة خمر أشربها ليلاً في الكوخ المجاور لمنزل خالتي في المزرعة. يشاركني، في وحدتي الليلية، كلب خالتي الضخم "تيجري" (Tigre).

علمتني مخدومتي غسل الصحون، قلي البيض والسمك والمقليات الأخرى. ذات مرة طبخت لها طبخة مغربية. استلذت طبخة الطاجين. صارت تقول لي مرة في الأسبوع:

- اليوم سنأكل طاجينكم المغربي. عليك أنت أن تطبخه وحدك.

شعرتني سعيداً معها. صارت موضوع رغبتني الجنسية. لم أعد أفكر في الشجرة - المرأة. الحنين يحزنني عندما أفكر في بغايا بورديل تطوان. على مهل أو بسرعة. بتقبيل الشفتين وضم النهدين أو مجرد أن يدخل الشيء في الشيء. لا بد لي من رفيق هنا لكي أتشجع. لم أعرف كيف أتردد على بيوت الدعارة التي سمعت عنها، لكن الرفاق عبوسون في وهران. لا يكادون يبتسمون.

كنت أرى، أحياناً، مسيو سيجوندي الإيطالي يقبل زوجته الفاتنة وينزه يديه على جسمها على مرأى مني. في غالب الأحيان أحمل لهما

الإفطار إلى السرير. زوجها عار حتى النطاق وهي تَشْفُ غلالتها عن حلمتها. لأول مرة أمرتني أن أغسل لها سلبات زوجها. قلت لها في البداية: نعم، على مضض لكن عندما وضعت السلبات في الماء قلت لنفسي: الرجل لا ينبغي له أن يغسل الثياب الداخلية لرجل آخر. قلت لمخدومتي مونيكا:

- لن أغسل سلبات مسيو سيجوندي.

- لماذا لا؟

- إنها سلبات مسيو سيجوندي.

- وماذا في ذلك؟

قلت لها خافضاً رأسي:

- الرجل لا يغسل الثياب الداخلية لرجل آخر.

ضحكت ثم قالت:

- وثياب المرأة؟

قلت بحيرة:

- ثياب المرأة... شيء... شيء آخر. يمكن للرجل أن يغسل ثيابها إذا هي لم تستطع أن تغسلها بنفسها.

قالت باسمه:

- أنت عجيب. (أضافت): أنت رائع. قل لي، أهذه عادة عندكم في

المغرب؟

لم أكن أعرف بعد أهي حقيقة عادتنا أم أنها صادرة عن تفكيري الخاص. لم يسبق لي أن مررت بتجربة تماثلها. إنها مشكلة مع هذه المرأة. قلت لها:

- نعم، عيب أن يغسل الرجل ثياب رجل مثله.

- هذا غريب عندكم.

ضحكا كثيراً هي وزوجها عن الحادث. بعد أيام أمرني زوجها بالقوة أن أغسل له سلبياته. رفضتُ. هو يصر وأنا أرفض. أفهمته أن هذا العمل تقوم به المرأة الوهرانية التي تنظف لهما المنزل. عبثاً رجته زوجته أن يكف عن عناده. تكلمنا بصخب وغضب بالفرنسية التي لم أكن أعرف منها سوى كلمات قليلة. قال لي بحدة:

- لماذا ترفض أن تغسل لي سلبياتي؟

- لأنه هكذا.

- أعتقد أن ثيابك أنظف منها؟

لم أجبه. صاح بغضب:

- اذهب إذن إلى منزلكم ولا تعد أبداً.

قلت لنفسي: طز في كل أوامر المخدمين. لم يبق لي سوى أن أغسل خراء المسيو سيجوندي. سأعود إلى تطوان. حياتي هناك وليست هنا.

بعد ثلاثة أيام أعادوني إلى العمل. جاء والدا مخدمتي الجميلة من سيدي بلعباس. حدثني أبوها عن أصله الإسباني. تأسف حين أدرك أنني لا أعرف القراءة والكتابة بأية لغة. سألني:

- ألا تعلمون عندكم العربية والإسبانية في تطوان؟

- نعم، سمعت أنهم يعلمون العربية والإسبانية.

- لماذا إذن لم تذهب إلى المدرسة؟

- لأن أبي لم يفكر أن يدخلني إلى المدرسة.

- أهو لم يكن يريد أم أنت الذي لم تكن تريد أن تذهب إلى المدرسة؟

- لا أدري. أنا لم أهرب قط من المدرسة. إننا جد فقراء، والدراسة تكلف هناك بعض المال.

تأمل جبهتي للحظة وسألني:

- بماذا حدث لك هذه الندبة؟

- داستني دراجة في سباق للدراجات عندما كنت أعبّر إلى الرصيف الآخر.

أمسيات وهران، في الصيف، طويلة وجميلة. الشيوخ يلعبون "الداما"، الشبان يتبارزون ابتهاجاً "بالمطرك" **8**، النساء يجلسن على عتبات منازلهن يتحدثن، الأطفال يتوزعون هنا وهناك يلعبون ويخترعون أشكالاً من التراب والخشب والقصب.

زرت سيدي بلعباس مع مخدوميّ. رحب بي كثيراً والدا مخدومتي وخالتها. والدها أكثر عطفاً عليّ منهم جميعاً. تجوّلت في المدينة. بدت لي موحشة. أعجبتني شارعها الرئيسي والكاتدرائية. سمعت في الشوارع إسبانيين يتحدثون بلغتهم **9**. رأيت سيركاً. عرضه يبدأ في الخامسة. لكن مخدوميّ أخبراني أننا سنعود إلى وهران في السادسة. دخت بكآبة. شربت كأساً نبيذ في حانة إسباني. زرت معرض الحيوانات الملحق بالسيرك. توقفت عند قفص قرد. الأطفال يلعبونه بشراسة. لم أعرف كيف حدث ذلك: شعرت بأظافر القرد تشطب وجهي. ضحك الأطفال وتأسفوا. أبعدهم الحارس عن القفص. القرد يقفز في قفصه هائجاً، مكشراً عن أسنانه. منظر إنساني ألم وجهي: شاب وشابة، من لاعبي السيرك، يتعانقان بحب وراء الخيمة الكبيرة بلباسهما اللامع. فكرت: ما أجمل حياة السيرك! تذكرت بستان عين خباز، أسية تتعري، انزلاقي فوق جسم فاطمة العارية وبغايا "السانية". حرارة أفخاذ النساء. ذلك ما كنت أحن إليه.

صبغوا لي وجهي في منزل خالة مخدومتي باليود. تركتني خالة مخدومتي أتنزّه في حديقته. الحديقة معنكبة. تحت قبة الحديقة وجدت

مقعدين خشبيين مهترئين، مغبرين. ملأني المشهد بحزن. الحديقة موحشة. أشياء مكسرة وأخرى ممزقة. العصافير على الأشجار. تلوث رأسي وكتفائي بذرقها.

في اليوم التالي اسودت خدوشي. يوم الأحد لم يأخذني مخدوماي معهما في سيارتهما. بقيت وحيداً في المنزل. فتحت الراديو. بعد لحظة أقفلته وشغلت الفونوغراف. كلمات الأسطوانات لم أكن أفهمها. موسيقاها هي التي تطوف بي عوالم فيروزية اللون. مخدومتي تعرف حبي لمقوطة "الدانوب الأزرق". حين يكون مزاجها رائعاً تقول لي باسمه: "سأضع لك أسطوانتك." "ستراوس موسيقي عظيم".

أخذت إضمامة صورها. تأملت صور عائلتها بسرعة. قلت لبعض صورها وهي طفلة: اكبري! اكبري بسرعة! بدأت تكبر في كل صفحة من الألبوم أقلبها. توقفت عند صورها الشاطئية خارجة من الماء أو مستلقية على الرمال مع زوجها أو وحدها. ثلاث صور تبدو فيها عارية تماماً: الأولى واقفة. منحنية قليلاً إلى الأمام، واضعة يداً على يد أسفل بطنها، الثانية على ركبتيها جالسة فوق ديوان من الفراء، صدرها بارز، مستندة إلى الورا ببيديها، استشارتني في الخيال:

- أهو جميل هذا الوضع؟

- رائع.

في الصورة الثالثة مستلقية على الديوان، رأسها يتوسد يديها، ساقها اليمنى مقوسة قليلاً. قال لي وضعها هذا:

- تعال!

قالت شهوتي لصوتها:

- أنت لي.

من صورها هكذا؟ زوجها؟ لو كانت عندي آلة تصوير في ذلك الصباح
لصورت أسية آتية نحو الصهريج، عارية تستحم، حائرة تفتش عن منامتها،
خائفة هاربة.

نزلت إلى قبو المؤمن لأحتفل بالعرس الخيالي. فتحت صنبور البرميل
وملأت قدحاً بنبيذ أعرف طعمه الجيد. وضعت زيتوناً أسود والجبن
الدنماركي في صحن. أشرب و آكل على مهل. إحدى صور مونيكا
الجميلة أمامي تغمرني. نفخت فيها الحياة. تمططت مونيكا. نفخت
الصورة في جسدي رعشة الحلم اللذيذ. أهي الصورة في خيالي أم خيالي
في الصورة؟ جسدي يتدغدغ. يعنف قليلاً. أخرجت ثعباني وبدأت أدلكه
وألاطفه. ينتفخ، يحمّر، يعرق ويلهث. يتعسل فمي، تتراءى الألوان
متموجة. كل الألوان لا لون لها ولها كل الألوان.

أحسست بخطوات. زررت فتحه سروالي. قالت:

- لكن ماذا تفعل هناك؟

...-

- وهذا الألبوم، ماذا تفعل به هنا؟

...-

أخذت ألبومها وصعدت وراءها.

- من سمح لك أن تتفرج على ألبومي؟

صفعتني. أكملت صفتها لذتي.

- شربت، أليس كذلك؟ لا أسمح لك أبداً أن تفعل هذا هنا.

سحتُ في الحقول غاضباً على نفسي وتيجري يتبعني. تذكرت
الصابونة المعطرة والكوب في القبو. ستقول مونيكا الجميلة: يستعمل
أيضاً صابونتي. ألمني خجلي. هي تعرف الآن أنني أضاجعها في خيالي.

عند عودتي أبصرت جمعاً من عمال القرية وأسرهـم يتجمعون حول عدد كبير من رؤوس الغنم التي داسها القطار. بعضها ذبحوها وبعضها نفقت قبل أن يذبحوها.

في الليل بدأ عواء الثعالب قرب منزلنا. فكرت: تفترس الآن الأحشاء. لو كنت كبشاً بين ذلك القطيع لكانت الثعالب تمزق أحشاي الآن بأنيابها.

دخل تيجري ينزف دمأ. يدور حول نفسه، يخرج ويدخل، يتأوه، يحاول أن يلحق جروح عنقه، أيقظت خالتي في منزلها. وضعت له في جروحه الرماد وضمدته. قالت:

- جروحه عميقة. لا شك في أن خمسة أو ستة من الثعالب قد تعاركت معه.

رَبَطْتُهُ في كوشي من وسطه خوفاً من أن يخرج. رأيتـه يموت شيئاً فشيئاً. مات قبل أن أنام.

في الصباح حملت جثته بعيداً في عربة يد ودفنته تحت شجرة زيتون. تلك أول مرة أدفن فيها جثة. استولى عليّ شعور غريب: لماذا يسوق القدر هذا الكلب إلى الموت بهذا الشكل الفظيع؟ القطيع أيضاً دهسه القطار. الراعي غبي. تيجري غبي. لا يعرف معنى الموت. لا شك في أن العالم مليء بالغباء. أنا أيضاً غبي؟

لم أرد أن أعود عند مخدومتي. الخجل ما زال يؤلمني. قالت لي خالتي:

- إذا لم تكن تريد أن تذهب عند السيدة سيجوندي فأنت تعرف ما ينفعك. لا بد أن تشغل نفسك بعمل ما.

تذكرت ما كان قد قاله لي أبي في تطوان: "إن الأكل والنوم في الدار يكلفان مالاً".

جاءت مونيكا عند خالتي. أخذت أترجم ما تقوله الواحدة للأخرى. خالتي لا تعرف سوى الريضية والدارجة الوهرانية. مونيكا تكلمني بالإسبانية. مشرقة هذه المخدومة. بدت لي أظلم في هذا اليوم. مزاج المرأة صعب الفهم؛ حين يعتقد الواحد في امرأة أنها ستسبب له مصيبة إذا بها تنقذه. حين يعتقد أنها ستنقذه ربما تقوده إلى مصيبة: الإنقاذ والهلاك متوقف على مزاجها.

مونيكا إذن لم تكره فعلي، لكن لا بد من لوم. قالت لي:

- لقد اعتقدت أنك مريض. لماذا لم تجيء اليوم إلى العمل؟

- تيجري قتلته الثعالب في الليل.

- أخبرني زوج خالتك. مسكين. لقد كان كلباً قوياً وجميلاً. أين دفنته؟

- تحت شجرة زيتون.

- حسناً فعلت. سيعثر زوج خالتك على كلب آخر.

تألمت مع نفسي: كلب ذهب، كلب سيأتي. يا ألهي! كن أيضاً رحيماً بالكلاب.

نهضت وأمسكتني من يدي. يدها دافئة. رعشات لذيذة تغزو جسدي.

- تعال معي إلى المنزل.

أنها إذن لم تخبر زوجها. أني أكرهه وأحبها: مثل أبي وأمي. بدأت أحلم كثيراً. أحلم أني أطيّر أو أعيش في كهف مفروش بالحرير وألوان لامعة تزين الجدران والبسط والبخور والعطور. أشير بيدي فيأتيني طبق مليء بما أشتهي. أصفق بيدي فتأتي فتاة رائعة لم تمسها بعد يدُ إنسانٍ. ترقص لي عارية وسط ضباب من البخور وضياء الشموع.

ذات صباح رأيته بعد أن خرج زوجها تأخذ علبة القطن وسليماً وتدخل الحمام. رأيت مراراً قطناً ملوثاً بدم قاتم في القمامة. من أين يجيء هذا الدم؟ وضعت عيني على ثقب الباب. تخلع سليها. تجلس على المغسلة وتفتح الماء. أهي تبول؟ كم هو جميل أسفلها. مونيكا تبول، مونيكا تخرأ. ليتها لا تبول ولا تخرأ. تغسل شئها وتحك عانتها. تضع منشفة بيضاء في جرحها. هكذا رأيت المرأة التي نعست معها في بورديل تطوان تفعل عندما انسحبت من فوقها. تضع القطعة القطنية في جرحها. تلبس السليب النظيف. أهن كلهن ينزفن هكذا؟ مونيكا الجميلة تنزف دماً! شيء مقرف إذ كن ينزفن دائماً.

صحبت معي إلى الحقل غلام أحد الجيران. يصغرني. سنصطاد عسافير كثيرة. هكذا قلت له. كنت أحمل مصائد. غلام وسيم، رقيق، يلبس الشورط، بشرته جميلة، وجنتاه موردتان، شفاته قرمزيتان، صغيرتان. منذ أيام وهو يسبب لي دوخة لذيذة كلما رأيته. نصبنا المصائد وجلسنا تحت شجرة زيتون. أكلنا لحمًا مقلياً وبيضاً مسلوفاً. دخن وشرب معي. قال:

- إنني أدخن وأشرب لأول مرة.

قلت له كما قيل لي في تطوان:

- لن تسعل أو تمتص في المرة المقبلة من الشراب والدخان. هكذا حدث لي أنا في المرة الأولى عندما كنت في تطوان. (أضفت): هل دُخت؟

- قليلاً.

اقترحت عليه أن ندخل وسط سنابل القمح عسانا نعثر على بيض الطيور. كنا نتنزه ورغبتي فيه ترعش جسدي. شفاته تلمعان. جلسنا. استلقيت على ظهري. استلقى إلى جانبي. تطوان! تذكرت أغنية تبدأ هكذا:

“عشقت طفلة أندلسية، صغيرة، شابة، خمورية...”

إنه طفل؟ شيءي ينتصب. إنه طفلي. عياني تدمعان باللذة. لاطفت يده، سحبها وجلس ناظراً إليّ مستغرباً. عياني دامعتان باللذة. خاف.

- ماذا تريد أن تفعل لي؟

- لا تخف. أنت جميل. تمدد إلى جانبي.

داعبته بيدي. كدت أبكي من اللذة. قال:

- أنا لا أحب مثل هذه المداعبات.

قالت له عياني:

- أرجوك. إني أحب أن الأطفك.

همّ أن يقف. أمسكته من يده بعنف. جسمي يرعش. الجنون في رأسي. سحب يده بقوة ووقف. أراد أن يهرب. عانقت ساقيه وجذبتة بقوة وجنون تحتي.

صار لي. طفلي!

- سأشكوك لأمي. سأشكوك لأبي وأمي. سأشكوك...

أمهات العالم. آباء العالم. تارة يعض يدي وتارة يعض التراب. جسدان في جسد. يخمشني. أعضه في رقبته. يكف عن الصراخ والاهتزاز. يستقر دفئي في دفئه. ألامسُ عضوه بيدي. ينتصب شيء في يدي. يتلذذ. أبوس رقبته، شعره، وجهه، فمه...

شكا لأبويه. اللعين! في تلك الليلة أنبتني خالتي. خجلت. أنكرت. حلفت لها أنني بريء. كرهت ملذات جسدي. بكيت. رأيت خالتي في اليوم التالي تبوس رأس أم الغلام طالبة عفوها. جسدي. تفوا!

قالت لي خالتي:

- لا بد أنك تعذب أمك كثيراً في تطوان. كن عاقلاً.

قلت لها في خيالي:

- كيف ينبغي لي أن أكون عاقلاً يا خالتي؟ كيف؟

- لا تفعل كل ما هو قبيح.

- لكني أحب ما هو قبيح لذيد.

- لا أفهمك.

- في تطوان كانت لي أفخاذ بغايا بورديل "السانية". وهنا هل أشتهي

فخذيك؟ فخذا مونيك لزوجها. فخذاك لزوجك. وأنا؟

مخدومتي تلاحظ فتوري في العمل وشرودي. قالت:

- لا شك في أنك تشتاق إلى رؤية أهلك في تطوان.

- لا أدري.

- أكيد أنك مشتاق لأهلك.

قلت لها في خيالي:

- أعطني فخذيك أعطك أهلي.

جنون. الشوق إلى التطوان جنون. الخمر والنساء والكييف. جنون

جميل. تطوان مجنونة. ليس هنا جنوني. في أي مكان في العالم سأبحث

عن جنوني.

قالت:

- اسمع، سنعطيك إجازة شهر كامل لتزور أسرتك ثم تعود إلينا.

وافقتها. كنت قد سرقت إحدى صورها ومنديلاً صغيراً عطّرته بأزكى

ما عندها من عطور.

لم أكن أرى جدتي وخالي إلا عندما كانا يزوران خالتي في أيام العطل. أحياناً يأتي هو أو هي فلا أراه أو أراها. لا عاطفة نحوهما. لا محبة، لا كراهية. هو وهي. هذا كل شيء.

لم تبد لي وهران عزيزة إلا يوم رحيلي. أَلألأنني أمل مما أحبه؟ سمعت أحدهم يقول:

“الداخل إلى وهران زربان (مستعجل) والخارج منها هربان (هارب).

في طريق عودتي إلى تطوان فكرت في أيهما أفضل: وهران منفى جميل وتطوان سجن جميل. سجن الوطن ولا حرية المنفى.

قضيت يومين في مليلة ويوماً في الناظور. تحدثت عن وهران مع ناس لا أعرفهم. قال لي أحدهم: “الناس يهاجرون إلى وهران وأنت تهجرها!”.

8. المطرك عصا يتبارز بها الجزائريون جدياً وابتهاجاً، بعضهم قد يتفنن في صنعها، خاصة مقابضها.

9. في ما بعد عرفت أنهم من مناهضي حكم فرانكو.

_ 5 _

عندما وصلت تطوان تيقنت أنني لن أعود إلى وهران. سبقتني رسالة من خالتي إلى أمي تقول لها بأني أسبب لها مصائب لا تقوى على تحملها، وأنه من الخير أن أبقى في تطوان. عندما أخبرتني أمي قلت لها:

- ومن قال بأني أريد العودة إلى وهران؟

وجدت أمي قد ولدت طفلة ماتت في الرضاع. لكن بطنها بدأ ينتفخ من جديد، أبي ما زال يقضي معظم وقته في ساحة الفدان مستلذاً بطالته. ينام كثيراً. يأكل مثل خنزير. يتناول النشوق ويعود أحياناً ثملاً إلى المنزل. ما زال يسب الناس دائماً والله أحياناً. لا يحب أحداً في هذا العالم. إذا اقتربت منه قطة يمسكها من ذيلها ويخبطها مع الحائط. من الغريب أنه يعامل الدواجن (مثل الدجاج والأرانب والمواشي) بلطف قبل أن يذبحها. ما إن يقبض على دجاجة أو أرنب للذبح حتى يخيل إلي أن الحيوان يموت بين يديه القويتين قبل أن ينحر.

أختي أرحيمو كبرت، أمي صارت تعتمد عليها كثيراً في الدكان. صالحني رفاق حي الطرانكات مع كوميرو، لكنني ظلت أحذر من انتقامه. رأيت ندباً يقسم خده الأيمن. كثير من الرفاق صاروا يهابونني، كانت لي طريقة خاصة في وضع شفرة حلاقة أو شفرتين ملصقتين في فمي وأتكلم دون أن أجرح فمي. مثل هذه اللعبة تؤكد لهم مهارتي في الضرب بالشفرة.

في ماخور السانية ذهب نساء وجاءت أخريات. فتيات قبيلة بني عروس مشهورات بجمالهن في الماخور وكذلك الغلمان الذي يرقصون في

المقاهي الشعبية رقصات أنثوية لابسين القفطان والزكدون والحزام
الجبلي الشبيه بعجلة سيارة. أيضاً ذهب حماة موشومون وجاء آخرون
موشومون مثلهم.

أستمع بالنوم في الدروب صحبة المتشردين أو وحدي. ذات صباح
باكر أيقظتني في درب فتاة حنون عرجاء وجميلة. سألتني:

- ألسنت أنت ولد السيدة ميمونة؟

- نعم.

- أنا أعرف أمك. لماذا لا تنام في داركم؟

- أبي طردني.

جاءتني برغيف مزبد وكوب قهوة بالحليب. خجلت أن أرفض لها
كرمها معي، لكنني صرت أحتاط كي أفيق باكراً وأنصرف من ذلك
الدرب المنعزل والدافئ. لم يعد يروق لي عطف الناس علي: لا الرجال ولا
النساء.

في فصل الشتاء تعودت أن أنام في ركن مخبزة. أكور نفسي
كالقنفذ. ألصق ظهري إلى جدار الفرن الساخن. حين أفيق في الليل،
لأغير وضعي أو لأبول، أجد فوق ققطاً تنام. أحياناً أستعذب شخيرها
الخفيف الذي يشبه هدير معمل بعيد. أستلذ أيضاً كل صوت حزين يصلني
من بعيد أو همساً عن قرب. بعض الأغاني التي أسمعها من المقاهي البعيدة
كانت حزينة ورائعة: أسمهان، أم كلثوم، عبد الوهاب وفريد الأطرش:
هؤلاء كانوا المفضلين عندي في العالم العربي.

أيقظني ذات صباح رجل سائلاً إياي:

- ألسنت أنت ابن السيد حدو؟

- كلا. لست أنا.

أعاد السؤال بإلحاح وحيرة:

- ألسنت أنت ابنه محمد الذي عاد من وهران؟

- قلت لك لا. ولا أعرف شخصاً بها الاسم.

- ما اسمك إذن؟

- محمد.

- لكن أباك هو السيد حدو بن علال وأمك هي السيدة ميمونة.

- قلت لك بأني لا أعرف سوى نفسي.

- من هو أبوك إذن؟

- مات.

- مات؟

- نعم، مات من زمان.

- ماذا كان اسمه؟

- لا أدري. كنت أعرف اسمه. لكنني نسيته. كنت في بطن أمي عندما

مات.

تأملني لحظة وقال:

- ما شاء الله! ما شاء الله!

مدّ لي بسيطتين قائلاً:

- هاك، اشْرِّ لنفسك إفتاراً. لا بد أنك جائع.

قلت به بصوت جاف:

- لست في حاجة إلى شيء. عندي نقود.

- عندك نقود وتنام هكذا هنا مثل قط. هل أنت أحمق؟

قلت له غاضباً:

- القط العجوز هو أنت والأحمق الحقيقي هو أنت.

نظرت إليه بجنون. صرخت في وجهه وأنا أنهض: عاووو! عاو عاو!

انصرفت وتركته خلفي يردد: "باسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من أولاد هذا الزمان".

وضعت أمي طفلة سموها الزهرة مثل الطفلة التي ماتت قبلها. هذه أيضاً عضها في ليلة جرد في يدها فماتت.

كثيراً ما يباغتني أبي في الشارع من الخلف ويقبض عليّ من ياقة قميصي أو يلوي ذراعي إلى ظهري بيد وبالبيد الأخرى ينهال عليّ ضرباً حتى يسيل دمي. عندئذ أعرف أن حزامه العسكري السميك ينتظرني في المنزل. حين تتعب يدها وقدماه من الضرب يعضني في كتفي أو في ذراعي قارصاً أذني، صافعاً وجهي. إذا ضربني في الشارع غالباً ما يتدخل بعض الناس ويخلصونني منه، لكنه لم يعد يفعل. هكذا، فحين يقبضني أسقط على الأرض وأصرخ بجنون. يشطب بي الأرض لحظة رافساً إياي حتى أفلت منه، ثم أجدني بعيداً لاعناً إياه، كارهاً كل الناس، باصقاً على السماء والأرض. ذات يوم كنت مع نشالين في مقهى ندخن الكيف ونشرب الشاي الأخضر. قررت أن نسرق لنقضي ليلة في البورديل. ذهبنا إلى السوق الجديد. الزحام خانق. فاجأني من الخلف وقبض عليّ من ياقة قميصي. قبل أن أشرع في الحيلة التي تخلصني منه هاجمه رفيقاي. ضرباه باللكم ونطحات الرأس. سمعته يصرخ ويئن ويستغيث. رأيته يغطي وجهه بيديه والدم يسيل من بين أصابعه بغزارة. وقفت بعيداً أنتظر نهاية المشهد. تمنيت لو أنني أشاركهما في ضربه. لو كان في مكان خال من الناس لشاركتهما. كان عزاء لي أن أراه يُضربُ عليّ مرأى مني حتى

يسيل دمه كما أسال دمي كلما ضربني. قال لي عبد السلام الذي لحق بي:

- ابن القحبة. ماذا حدث لك مع ذلك الكلب؟

- لا شيء، إنه أبي.

- أبوك؟

- نعم، لكنه يستحق أكثر مما حدث له.

قال السبتي الذي وصل:

- ولد الزبل. ولد القحبة.

قال لي:

- ماله معك؟

قال له عبد السلام:

- إنه أبوه.

- أبوه؟ (أضاف لي): أبوك؟

- نعم، أبي. (أضفت): إنه يستحق أكثر مما فعلتماه له. إنه كلب.

عندما بلغنا درب "الطلعة" رأيت رجلاً مخموراً يخرج من دار. كانت ليلة باردة، ماطرة. قال عبد السلام:

- المطر سيخفف من هذا البرد.

تخطانا الرجل السكران يترنح. سمعنا ارتطاماً على الأرض. قال السبتي:

- إنه جد سكران. لا بد أنه قضى اليوم كله يسكر هنا. أنا أكره السكر في النهار.

نهض الرجل السكران بصعوبة. دخلنا الدار نفسها التي خرج منها. استقبلتنا امرأة أنفاسها مخمورة. جسمها رشيق، لكن وجهها متعب. لابسة قفطاناً من المخمل أسود. أمسكت وجه عبد السلام بين يديها بحنان ورقة وباسته في قمه: قبلة مسموعة. قالت له:

- ماذا حملت لي معك اليوم؟ ماذا حملت لأمك؟

إنها أمه إذن. أمه تبوسه في فمه هكذا كأنه عشيق صغير. قال لها عبد السلام:

- كل شيء. كل ما تريدينه سأتيك به ما دمت حياً.

ثم أعطانا سلسلة ذهبية يتدلى منها صليب. فحصت الصليب وقالت:

- هذا سأخلعه لأرميه أو أذوبه عند الصائغ لأجعل منه "خميسة".

رأيت السبتاوي يتجه إلى حجرة مضاءة. أصوات رجال ونساء وضحكات. قدمني عبد السلام إلى أمه المخمورة:

- ماما، هذا صديق جديد. محمد. (فحصتني بعينيها الناعستين). سيسهر معنا هذه الليلة.

احتضنت وجهي برفق بين يديها وقبلتني في شفتي. قبلة متمهلة ذات رنين. استعذبت أنفاسها المخمورة المزيجة بعطر قوي.

- مرحباً بك عندنا.

تأملتني لحظة ماسكة وجهي بين يديها مبتعدة قليلاً إلى الورا. عيناها ناعستان مشرقتان نديتان. أمالت رأسها قليلاً إلى الورا. أكاد أرى وجهي في عينيها الدامعتين. ماذا تريد مني هذه المرأة؟ أهي تسحرني؟ اضطربت. عيناها جميلتان. عبد السلام ينظر إلى أمه مبتسماً. أهي حقيقة أمه أم هي لعبة؟ ربما تكون تبنته. قالت لنا:

- اطلعوا إلى الغرفة كلكم. سيأتيك كل ما تريده.

صعدت مع السبتاوي إلى الطابق العلوي وتركنا عبد السلام يتفاهم معها حول سهرتنا.

حملت إلينا فتاة، في حوالى العاشرة، صينية وزجاجة كونياك تري. قال السبتاوي:

- ليس أحسن من الكونياك في هذا اليوم البارد.

قلت له:

- وهاضم.

كنا قد أكلنا طعاماً دسماً. محفظة النقود التي سرقها السبتاوي كانت تحتوي على ثلاثة آلاف بسيطة. قال:

- عبد السلام يتفاهم مع أمه لجلب ثلاث فتيات جميلات من خارج الدار. هناك فتيات كثيرات لا يقحبن علانية. يبقين في منازلهن رهن طلب القوادات. بعضهن متزوجات. قد تجد بينهم من هي عذراء.

- وهل يمكن نكاح عذراء؟

- إنها تسهر مع الجماعة، وفي نهاية السهرة ترسل معها القوادة من يصحبها إلى دارها أو تنام معها حتى الصباح.

- وإذا أراد الواحد أن يفتض فتاة عذراء!

- في هذه الحالة ينبغي دفع ثمن افتضاها.

- كم، مثلاً؟ (نظر إليّ بتعجب). أضفت:

- إنني أسأل فقط.

- هلا تريد أن تفتض واحدة؟

- إذا كان ممكناً ذلك فلماذا لا!

- إنها تكلف ألف بسيطة أو ألفاً وخمسمئة بسيطة.

- أليس عند أم عبد السلام هنا فتيات؟ لقد سمعت أصواتهن في الحجرة التي دخلتها أنت.

- عندها هنا فتاتان مُحترفتان، جميلتان لكننا شبعنا منهما أنا وعبد السلام، هذه الليلة ليس هناك سوى فتاة جديدة تشرب الكونياك لتسكن ألم ضرس.

سمعنا أصواتاً رقيقة ضاحكة. قال السبتاوي:

- ها هن طالعات.

أطلت علينا أم عبد السلام باسمة ثم ظهرت خلفها ثلاثة فتيات لابسات القفاطين. إنه عرس، عرس حقيقي. ملأت أم عبد السلام كأساً لنفسها وانصرفت بها. دخل عبد السلام حاملاً في يده كرتوشة سجائر فرجينيا. جلست كل واحدة إلى جانب كل واحد منا دون اختيار.

لم أخرج خلال ثلاثة أيام. ينصرفن في الصباح إلى الحمام. في المساء يعدن نظيفات، معطرات، مكحلات ومسوكات. السبتاوي وعبد السلام يخرجان معاً وأفضل أنا البقاء نائماً أو حالماً في يقظة بذكرياتي في طنجة وتطوان ووهران. في الليل يصير للحياة طعم الخلود.

لم أنفق سوى ثلاثمئة بسيطة. أحياناً تأتيني عزيزة، أم عبد السلام، لتحدثني عن حياتها وتشرب وتدخن سجائر شقراء. أحياناً تدخن الكيف. في المساء الرابع لم يعد عبد السلام والسبتاوي. طلبت مني أن أخرج لكي أفتش عنهما، دخت وعرقت وعندما خرجت من الدار. بعد ساعتين عدت. أخذت تنتحب متسائلة:

- لا بد أن يكون رجال الشرطة قد قبضوهما؟

لم أعرف كيف أجعلها مطمئن. بين حين وآخر أردد برتابة:

- أتمنى ألا يكونوا قد قبضوهما.

ظللت تتردد عليّ حتى الواحدة صباحاً حاملاً في كل مرة كأساً ملاً بالكونياك. تارة تنتحب وتارة تضحك.

قالت:

- هناك في الأسفل فتاة ستنام وحدها هذه الليلة. هل تريد أن تنام معك؟ لا تدفع لها شيئاً. أنا سأفاهم معها.

ابتسمت لها. شربت كأسها دفعة واحدة. نهضت. انحنيت عليّ. أمسكت ذقني في يدها وباست فمي بلذّة. قالت:

- إنك تذكرني بأخي "سلام".

لأول مرة أرى امرأة سكرانة.

خطت خطوات خارج الغرفة ونادت على الفتاة:

- ياسمينّة، اطلعي!

سمعتها تتهامسان قرب الباب. لا بد أنها توصيها بي. دخلت الفتاة، خجولاً، لابسة قفطاناً. رائحة عطرها قوية. قالت:

- ما زال البرد شديداً رغم الأمطار الغزيرة التي سقطت.

صبت لها الكونياك بالليمونادا. أخذت ترشف من الكأس رشقات صغيرة. لم نتكلم كثيراً. خفف حضورها مللي. أمسكت يدها في يدي. قالت لها عيناى وبسمتي:

- أنا لا أفهم كثيراً من الأشياء. وأنت يا ياسمينّة؟

قالت عيناها وبسمتها:

- أنا كذلك لا أفهم كثيراً من الأشياء في هذا العالم.

نظرت إلى المصباح. لا بد أن نطفئ الضوء حتى لا نظل هكذا مثل أخوين.

_ 6 _

صالحني الجيران مع أبي. بدأت أساعد أمي في الدكان بانتظام. حتم عليّ أبي ألا أخرج للسهر في المقهى. إنه عذاب لا يحتمل ألا أخرج في الليل. إن الليل هو كل ما أملك ما دمت أقضي النهار في الدكان مع أمي.

ذات صباح، وقف أمام الدكان شرطيان سريان: مغربي وإسباني. قال لي الشرطي المغربي:

- تعال معنا.

فكرت في عبد السلام والسبتاوي. رجوت من ابن بائعة النعنع قبالة دكاننا أن يبقى لي في الدكان حتى أعود أنا أو أمي من مخازن الخضر. قاداني إلى مركز الأمن. قال لي الشرطي المغربي في المخضر:

- أين هو عبد السلام والسبتاوي؟

- لا أعرفهما.

- كيف لا تعرفهما!

- لا أعرفهما.

صفعني مرتين وشدني من قميصي على صدري:

- اسمع، إذا لم تقل لنا الحقيقة سنقلب لك وجهك إلى الوراء. أتفهم أم لا؟

أطل الشرطي الإسباني من مكتب وقال:

- أدخله.

عندما دخلت تطلع إليّ الضابط وقال:

- أهاه! أنت هو إذن.

كنت أعطي لابنه خوليو، في عين خباز، العصافير التي تخنقها مصايدي، لأنني كنت أعتبرها جيفة. كانت زوجته تسخرني عند البقال وأصحابها أحياناً إلى السوق لأحمل لها السخرة.

- أين تسكن أسرته الآن؟

- في حي الطرنكات.

- هل ما زالت أمك تبيع الخضرة؟

- نعم.

- وأنت، ماذا تعمل؟

- أساعدها في الدكان.

- لكنك أيضاً تصاحب بعض النشالين وتسرق معهم.

- أبداً.

- ألا تعرف عبد السلام والسبتاوي؟

- أراهما في قهوة الطرانكات. لكني لا أصاحبهما.

- ألا تعرف أين يمكن أن يكونا الآن؟

- لا أعرف.

- منذ كم لم ترهما؟

- منذ أكثر من أسبوع.

- آي ياياي!

بعد لحظة قال:

- طيب، يمكن لك أن تنصرف، لكن إحذر أن يقبضوا عليك يوماً ما مع اللصوص.

شكرته وخرجت. خارج المخفر بدأت أبصق بين الحين والآخر نجمات من الدم الذي كنت أبلعه وأنا أجيب الضابط "ألفا" (Alva) كما كنا نسميه في عين خباز.

في المساء وجدني صديقي التفرسي في مقهى الطرانكات أدخن الكيف مهموماً. فاحت منه رائحة النشوة. ألح عليّ أن أصحبه إلى سهرة سيقيمها أخوه الأكبر في أحد بساتين "كيتان" عند صديق له. اشترى التفرسي زجاجتين من نبيذ مالقة الحلو. ذكر لي أنه حضر عدة مرات مثل هذه السهرة التي سنذهب إليها. يقيمونها مرة كل سبت في ذلك البستان.

- حينما يسكرون ينهضون إحدى الفتيات لترقص لهم عريانة

تعجبت:

- ترقص عارية تماماً؟

- وأكثر من هذا.

- ماذا أكثر؟

- اترك ذلك حتى تراه بنفسك.

ركبنا سيارة أجرة. كان التفرسي قد أصبح له رأسمال. يبيع الخضر والفواكه لحسابه. ذكر لي، في زهو، أنه يسكن مستقلاً عن أبيه وله عشيقة جميلة طلقت بعد ثلاثة أشهر من زواجها.

نزلنا. سألته عن موقع البستان. قال:

- بعد دقائق سنصل.

الليلة قمراء والجو دافئ.

- إنها تحبني. تستطيع أن تقتل نفسها إذا طلبت منها ذلك. أحياناً
أضربها حتى أدميها. تذهب غاضبة فأقول لنفسي: هذه آخر مرة. إنها لن
تعود، لكنها تعود بعد يوم أو يومين.

- وهل تحبها أنت؟

- أووه، لا أدري. لقد ألفتها. إذا كانت الألفة هي الحب فإني أحبها.

- لماذا تضربها إذن؟

توقضنا. فتح زجاجة وشربنا منها بالتناوب بعض الجرعات.

- أعتقد أنها تجد لذتها عندما أضربها. إنها تشاكسني. تفعل ما أنهيها
عنه.

فكرت: لقد أصبح التفرسياتي يتصرف كرجل مع المرأة. قلت له:

- إنك محظوظ.

- لماذا؟

- لأنك لك امرأة تأتيك متى تشاء وتضربها متى تشاء.

ابتسم وقال مزهواً:

- أنت أيضاً ستكون لك امرأة.

- ربما.

- أنا أضمنها لك.

فكرت: التفرسياتي صار يضمن لنفسه ولغيره. "بالمال يستطيع الإنسان
أن ينجح العالم". هذا ما قاله حشاش في مقهى الطرانكات.

اقتربنا من المكان. سمعنا موالاً وتوقيعات على المندوليننا. قال:

- لقد بدأوا.

توقفنا قدام باب من الخشب. دفعه فتراءت لنا أضواء فوانيس. سمعنا صوتاً:

- من هناك؟

رد عليه التفرسياتي:

- أخو التفرسياتي.

صوت جميل لشاب يموت:

يا ليل طُلْ لا تَطُلْ

لا بُدَّ لي أن أسهرك

لو باتَ عندي قمري

ما بتُ أرعى قمرك

رجال ونساء، جالسين تحت شجرة. البستان يعبق بروائح الزهور. رائحة مسك الليل قوية. قلت لنفسي: "هذه جنة". الأرض مفروشة بالزرابي والوسائد. رحب بنا أخو التفرسياتي. أعطيناها الزجاجتين قال:

- نبيند موسكاويل. عظيم.

جلسنا. كنا نحن الاثنين أصغرهم. كانوا قد شربوا. همس شاب في أذن فتاة. قامت واختفت بعيداً عنا. امرأة في حوالى الثلاثين تصب الخمر. بدأ عازف المندوليننا لحن الرقصة يصاحبه شاب بالدربوكة وفتاة بالدف. صاح صوت الشاب الذي كان قد همس في أذن الفتاة:

- أنيسة! أنيسة! أنيسة!

تعالت أصوات بنفس الاسم. جاءت أنيسة في مشية راقصة. ترقص وتوزع علينا بسماتها. لم تكن تلبس سوى غلالة شفافة بلا رافعة للصدر. إن الشيطان يرقص الآن في جسدها. شيطان سكران. همس في أذني التفرسياتي:

- هل سبق لك أن شاهدت من قبل مثل هذا المنظر؟

- أبدأً. حتى في السماء لم أشاهد فتاة ترقص ونهداها شبه عاريين مثل هذه.

- ها أنت ترى. أتمنى أن يفعلوا لها مثلما فعلوا لها في إحدى هذه السهرات. لقد أجلسوها عريانة في جفنة كبيرة وصبوا عليها غرافتين من النبيذ الإسباني ثم راحوا يملأون كؤوسهم ويشربون.

كلمات الصنعة الأندلسية تقول:

يا ليلة حزتِ الجمالُ

والسعدُ أقبلُ

لكِ المفاخر والكمال

والعزُّ أجملُ

بلغتُ قصدي والآمال

في البدر الأكمل

جاد بانسراح وقتنا

والبعد ممنوع

الفرح أقبل والهنا

والشمل مجموع

_ 7 _

صرت أفكر: إذا كان من تمنيت له أن يموت قبل الأوان فهو أبي. أكره أيضاً الناس الذين يشبهون أبي. في الخيال لا أذكر كم مرة قتلته! لم يبق لي إلا أن أقتله في الواقع.

رفضت عشاء أشتهيهِ. السينما تناديني. فيها أنسى همومي. سأكل الدجاج بالجلبانة في خيالي. يدي ترتعش حين أمزق شريحة لحم أمامه. لماذا يحدجني بسخط؟ أكل بحدز مثل قط. أناه حاضرة حتى في غيابه. إرادته هي اختيارنا. لهذا السبب أفضل أكل حصتي على انفراد. ينبغي لك ألا تتناول طعامك وحدك. إنها عادة سيئة. "ليست أسوأ من حضور أبي" هكذا أجيبها في خيالي.

أبي أقرب منا إلى الإله وأقرب إلى الأنبياء والقديسين. كثيراً ما تمنيت لو أنني أتصور طعاماً فأشبع. لقد جعلني أرتاب في كل ما يقدم لي من طعام وأشياء أخرى.

- أبوك لن يتغدى معنا اليوم. أجلس إذن على المائدة وكل.

- لا أريد.

- أجلس وكل أقول لك.

أصرخ:

- كلا. هل تفهمين؟

- لماذا؟

- تعشيت دجاجاً بالبصل والزبيب واللوز.

- أين؟

وضعت سبابتي على جبهتي:

- هنا.

- إنك مجنون. احذر أن يدخل ويجدك تأكل وحدك.

حبي لها يمتزج بكراهيتي لأبي.

دخل. ها هو الآن قد حضر كوجبة الكرشة التي أشمئز منها منذ أن مات خالي ورأيت الناس يأكلونها بعد الجنازة.

- لماذا لا تأكل؟

- شبعان.

- كذاب. أنت لا تشبع. لا أريد أن تشبع كما تريد أنت.

- أحلف أنني الآن شبعان.

- أنا أعرفك جيداً يا ابن هذه القحبة.

- يعرفني الناس إذا كنت قحبة.

صفعها. صرخ في وجه أمي وأختي:

- توقفا أنتما عن الأكل وإلا سأجعلكما تأكلان الخرق.

قال لي:

- وحدك ستأكل كل هذا الطعام. (وحدك. ستأكل كل شيء. وحده،

وحده، وحده...)

قلت حتى لا يبدأ في ضربتي:

- نعم، نعم.

- ابدأ إذن.

اعترضت أُمي:

- هل جننت؟ ستقتله.

- فليمت وبعده أنت.

تتوسل إليه وهو واقف ونحن جالسون. بدا لي مثل عملاق يتحكم في الأقدام. نحن كنا أغنامه. يستطيع أن يبدأ بذبح من يشاء. أختي أرحيمو منكمشة على نفسها وأمي تبكي.

- بعد اليوم لن تعاف ما يُقدِّمُ لك من طعام. صفعني. هدهدتُ بلساني باطن شفتي السفلى. انسلاخ مؤلم.

- حتى الجيفة لن تعافها بعد اليوم.

فمي يمتلئ بمسيل دام دافئ، مالح وحلو. أحسُّ بتفاعلٍ يُوسِّعُ معدتي. بدأت أكل. كراهيتنا تتعمق. لو كنت أقوى منه لجعلته يأكل الحلفاء.

أفقتُ في المستشفى المدني. أتنفس ببطء. غسلوا لي معدتي وأنا في غيبوبة. المغصُ يمزق معدتي.

صوته:

- أين هو؟

- نائم.

- سيتعشى معنا.

- أنه متعب. اشتغل معي كثيراً في الدكان.

تضلله. هذا ما لا يجعلني أكرهها كما أكرهه أو أتمنى موتها كما أتمنى له.

سمعته يتكلم وحده. لم أستطع أن أتراجع. لقد أحسّ بدخولي وجدته جالساً وحده. سحنته شرسة. تجعدت أساريره حين رأني. الغائبون حاضرون أيضاً في حضوره. يلعننا حاضرين وغائبين يستحضرنا وقتما يشاء هو. إنه كالإله. من أعطاه هذه القوة؟

- أين أمك؟

- تشتري السلعة من المخازن.

- من تركت في الدكان؟

- أرحيمو.

- وأنت؟

- لم ترد أُمي أن أصحبها إلى المخازن.

- وتجيء الآن إلى الدار لتأكل.

- أبداً.

- وإذن؟ أنا أعرفك. تحسبني ذهبت إلى ساحة "القدان". إنك لست إلاً ولد قحبة. ألا أقول الحق؟ تأمل جيداً وجهي. (أنا خافض رأسي). كأنني لم ألدك. ربما نام مع أمك رجل آخر. يثق الإنسان في الشيطان ولا يثق في النساء. أرى أنك لا تشبهني في شيء. ربما تشبهها هي. أولاد القحاب يشبهون أمهاتهم. إنها دائماً كذلك. تتواطأ عليّ. كلاهما يحاول أن يدافع عن الآخر. لا تبالين أبداً بما أقوله. أليس حقاً ما أقوله؟ تكلم أيها الملعون. أعرف أنك تكرهني. تتمنى لو أنني أموت. (فكرت: ها أنت بدأت تقول شيئاً معقولاً). تحبها. لا تحب إلاها. (فكرت: هي لا أكرهها. أما أنت فمن يحبك في هذا العالم؟) أرى هذا الحب في عينيكما معاً. كذلك كما لو أنك ما زلت ترضع منها. حليبها لا يزال بين أضراسك. هي أمك. لكني أنا أبوك. إذا كان هناك من يجب أن تطيعه فهو أنا. لا أحد إلا أنا. الطاعة لي وحدي ما دمت حياً. أسمعني؟ (أسمعك يا خليفة الله

في أرضه التي يحكمها آباء مثلك). لكن الكلام معك لا يجدي في شيء.
تعتبرني غائباً حتى حين أكون حاضراً. أسمعني أيها المسخوط؟
(أسمعك يا ولي الله). أنك لست إلا عضاض ثدي أمك.

ظللت ماثلاً أمامه كما يريد لي هو أن أكون.

- ماذا جئت تفعل هنا بالضبط؟

- أمي أرسلتني.

- لماذا؟

- لأنظف الغرفة.

- إنك تذكرني بجميع الكذابين. إنها لا تترك في الدكان لأنك
تسرقها وتشاكسها. لا تصحبك معها إلى المخازن لأنك تأكل هناك
متاع الناس. الباعة والحمالون يقولون لي عنك كل شيء. تحشو
جيوبك بالفاكهة. ما زلت أفكر كيف ينبغي لي أن أتخلص منك. (وأنا
أيضاً أيها الأحمق...) إني أكرهك. (وأنا أيضاً أيها المجرم). الآن أخرج
إلى الدكان. احرس مع أرحيمو حتى لا يسرقها الأطفال.

هبطت الدرج أرتعد. لن أتخلف عن الذهاب إلى السينما هذا المساء.
"إنه متعب. اشتغل كثيراً معي في الدكان". تضلله. هذا يمنعني من
كراهيتها.

صعدت إلى السطح بحذر. إنه الآن صامت. ربما يحشو فمه بلقمة
كبيرة، إنه يأكل كوحش.

ألتفت ورائي وأنا أربط الحبل. انبثق شبحه.

- إلى أين أنت ذاهب يا ابن الحرام؟ تعال. إلى أين؟

ارتميت بلا تردد على أسلاك الكهرباء الغليظة. سمعته يسب. يتوعدني
بيديه المطبقتين على عنقي في الفراغ.

- حدست هذا.

بصيرتي إلى أسفل. دختُ. سيخرج من المنزل ويتلقفني. سيعجنني. عقله مريض. تنفستُ بعمق. هويتُ مُغمضاً عيني. تكورت فوق الحجارة والزبل. شيء حي خبط تحت رجلي:

- رأسي! من أنت؟ سارق؟ أقبضوه. قف هناك!..!

كل ما أدوسه ينزلق تحت قدمي الحافيتين. لا أميز بين البطيخ الأحمر والأصفر والرؤوس إلا عندما أسمع صراخاً تحت قدمي. صاح العساس الإسباني الذي جاء قادماً.

- آيه! قف هناك! تعال هنا!

جعلت الشيخ الإسباني يشطح مهدداً إيايَ بهراوته.

- أقول لك تعال! اللعنة عليك!

سمعت زعيق صفارة الحارس. شبح أحدهم يركض يائساً في القبض عليّ. خمسة أو ستة منهم يتابعونني بحركات وإشارات.

حمل إليّ السكون دمدماتهم المتلاشية. كففت عن الركض. لكنني خشيت أن يعترض طريقي أحدهم من الجهة الأخرى. ربما يكون أبي الملعون بالذات. استأنفت ركضي بأقوى سرعة. فكرت: سأظل أجري حتى أتهاوى. حتى أسقط مثل كرة من البلاستيك يثقبها طفل.

في السينما أشعلت سيجارة. أهدهد بيدي بناني الدامية. تخيلت يدي أبي تطبقان عليّ. إنه في خيالي كغريم البطل على الشاشة الآن. أنا البطل. ضغطت على الزناد: طراطا طاطا... طراطا طاطا.. طران. أبي يموت. الرصاص يبرد في قلبه ومخه. الدم يسيل منه كما يسيل دم عدو البطل على الشاشة الآن. أطرافه ترتعش لآخر مرة. مات أبي في خيالي كما مات خصم البطل على الشاشة. هكذا تمنيت دائماً أن أقتله.

بعد خروجي من السينما اتجهت إلى ساحة الفدان. جلست على المقعد الجرانيتي مستعيداً قتل البطل لغريمه. أبي يتمرغ في دمه وأنا أنظر إليه بانتصار. أطفال وشبان وشيوخ نائمون على الأرض وفوق المقاعد كالأسماك الميتة على الشاطئ. حين يصل شخص يختار مكانه ثم ينبطح وينام. معي خمسة وسبعون بسيطة. لفتها جيداً وطمرتها في التراب، قرب ساق وردة خلف المقعد الذي سأنبطح عليه. نمت. حلمت أن أبي يطاردني. أحسست بيد تفتش جيوبي. لم أتحرك. تركت عيني نصف مغمضتين. الشخص أكبر مني. إذا أراد أكثر من تفتيشي فسيكون لي معه شيء آخر. انقلبت ببطء على ظهري لأساعده على تفتيش كل جيوبي. انصرف. رأيتة يُحوم حول نائمين آخرين. حلمٌ ينتهي في تطوان وحلم يبدأ في طنجة. كنت ما زلت في تطوان وأنا أضيع في شوارع طنجة.

_ 8 _

أفقت مدعوراً. الغلام يهزني من كتفي ويقول لي:

- قم! البوليس! البوليس!

اختفت الستون المتبقية معي من جيبي ونزعوا لي حذائي دون أن

أفطن. قلت للغلام ونحن نجري:

- سرقوني.

- كم؟

- ستون بسيطة.

- يخلصها الله.

خفنا سرعتنا. أضاف:

- أنت محظوظ.

كنا نلهث.

- ماذا تعني؟

- إنهم يغتصبون إذا لم يجدوا ما يسرقون.

قصدنا مقبرة بوعرقية. سألته:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- اتبعني واسكت. لا تخف من شيء.

دخلنا عالم الصمت الأبدي. فكرت: هنا مدفون أخي عبد القادر. حين يموت أبي سأزور قبره لكي أبول عليه. إن قبره لن يصلح إلا لمرحاض. مشينا فوق القبور. وقضنا قدام مقبرة عائلية مسورة. قفز الرفيق فوق السور. قال:

- اقفز، ماذا تنتظر؟

قفزت. أخذ يفرش الأرض بقطع كبيرة من الورق المقوى كانت متراكمة في زاوية. قال:

- هذا مكانك.

ثم شرع يفرش مكانه. تقرفت وذراعاي على ركبتيّ. جلس وسألني:

- من أين أنت؟

- ريفي.

- وعائلتك؟

- في تطوان.

- تسكنون هناك؟

- كنا نسكن هنا في طنجة ثم انتقلنا إلى تطوان.

- هربت؟

- نعم.

- حتى أنا هربت.

- من أين أنت؟

- من "جبل حبيبي".

فكرت: هو جبلي إذن.

- لماذا هربت؟

يبحث عن شيء في جيوبه.

- طردتني زوجة أبي.

- وأمك؟

- ماتت.

أخرج عقبين. سألني إن كنت أدخن. قبلت العقب. شممته: رائحة تبغ أشقر. أشعل لي. سحبت نفساً عميقاً. سعلت ثم غمرني ارتخاء لذيذ. حلقي ناشف. سألت:

- هل تعرف تطوان؟

- ليس كثيراً. هربت إلى طنجة بعد أن سكنا في تطوان حوالى شهرين.

- ماذا يعمل أبوك؟

- حمال. وأبوك أنت؟

- لا شيء. كان جندياً في الجيش الإسباني ثم هرب. قبضوه وحكموا عليه بسنتين. من يوم أن خرج من السجن وهو يهش على الذباب في ساحة الفدان.

- ومن يعيل أسرتك؟

- أمي تبيع الخضر والفواكه في حي الطرانكات.

- وأنت، ماذا كنت تعمل؟

- أحياناً كنت أساعد في الدكان وأحياناً أحترف أعمالاً أخرى.

- ولماذا هربت؟

- كان أبي يضربني كثيراً. أحياناً كان يعلقني من رجلي إلى فرع شجرة ويضربني بحزامه العسكري. كنا نسكر في عين خباز في ذلك الوقت.

- أنا أيضاً كان يضربني أبي عندما تشكوني إليه زوجته.

- وهنا. ماذا تعمل؟

- حمالاً. أحياناً أسرق.

بعد لحظة قال:

- أنا متعب، سأنام.

كانت حوالى الواحدة بعد الزوال عندما هبطت الميناء. كنت حافياً. جد متعب. شربت كوب ماء في أحد مقاهي الميناء. أحسست بوجع قاس في معدتي ماشياً تحت شمس كاوية. جنون الجوع والقيظ يفقدانني رؤية الأشياء في وضوح. التقطت سمكة صغيرة جافة ومدوسة. شممتها. رائحتها مقيئة. سلختها. مضغتها باشمئزاز. طعمها نتن. أمضغها وأمضغها دون أن أقوى على بلعها. حجارة ناتئة تؤلم أخمص قدمي. أمضغ السمكة كعلكة. تفلتها. رائحتها بقيت في فمي. ألوك فراغ فمي. ألوك وألوك. أمعائي تبقبق. تبقبق وتبقبق. دخت. دخت وتدفق الماء الأصفر من فمي وأنفي. تنفست بعمق. قلبي يخفق بعنف. بصلة ويزول هذا الدوار. العرق يسيل على وجهي، يسيل ويسيل. فكرت في الرفيق الذي أنقذني ليلة أمس من دورية حملة القبض على المتشردين. لماذا لم يوقظني في الصباح؟ ربما حاول فلم أستيقظ. لم يعرف أحدنا اسم الآخر.

صياد يأكل فطيرة محشوة. آكلها معه في خيالي. يستند على حافة مركب الصيد وأنا متعباً أنظر إليه، أنظر وأنظر إليه لعله يرمي شيئاً واكل. قرد مربوط إلى صاري المركب يمسك بين يديه شيئاً يحاول بعصبية أن يكسره بأسنانه. تمنيت أن يكون ذلك الصياد يمضغ بلا طعم كما كنت أنا أمضغ سمكتي النتنة. ينظر شارداً إلى مباني طنجة القديمة.

قلت له في خيالي: "أرم خبزك كما رميت أنا السمكة النتنة". ناداه رفيق في المركب. رمى الفطيرة إلى الماء ثم ذهب إليه. انبجس طعم الملح لذيذاً في فمي. أحسست بلذة تنعش جسدي الرخو. تعبي يخف. نزعت قميصي وسروالي وقفزت إلى الماء. طفوت تحت قطعة الخبز. ضحك الصياد. رفعت رأسي إليه. قبضت على الشطر وفتته في قبضة يدي. قطع الخراء تعوم حولي. بقع من زيت المراكب. سبحت نحو السلم الحجري. قطع أخرى من الخراء والخبز تطفو أمامي. اختلط في ذهني الخبز بالخراء. تسرب الماء القذر إلى حلقي. اختنق تنفسي. صعدت درجتين. انزلت وسقطت في الماء. الماء يتسرب إلى حلقي. صعدت ناشباً أظافري في الصخر حتى دمي بعضها. عندما بلغت آخر درجة تخيلتني أسقط مرة أخرى. جسمي مديق بزيت المراكب. في أذني صمم. التقطت قميصي وسروالي وانصرفت. ناداني الصياد. التفت إليه. لوح بي بيده أن أعود. قهقهاته تخفت شيئاً فشيئاً. ناداني:

- ايه! يا ولد. تعال هنا. إنه فقط مزاح. هاك خبزاً آخر.

قال الصياد الآخر فوق المركب:

- مسكين الولد، مسكين!

لم ألتفت مرة أخرى إليهما. رأيت في الطريق بعض الأسماك الصغيرة المدوسة. سمعت سقوطي في الماء. أظافري دامية. رفعت وجهي نحو السماء. إنها أكثر عراءً من الأرض، أكثر عراءً.

صفعتني الشمس الحارة. ارتعش من العياء. ارتعش وأرتعش. قط يستخري في اطمئنان في قعدة ظلية. يتأملني ناعساً بلا مبالاة. بطنه البيضاء - السوداء تعلو وتنخفض ببطء. التقطت سمكة أخرى صغيرة جافة، رائحتها أكثر نتناً من السمكة الأولى. أقيء الماء المالح. أقيء وأقيء حتى لم يبق إلا صوت القيء، إلا صوته.

قصدت الشاطئ. فارغاً أحسني، رخواً. أتخيل أنني سأسقط ولا أستطيع أن أقوم. لكي أنسى ما حدث رحت أتأمل خطواتي على الرمل تلحقها الأمواج. رميت قميصي وسروالي على الرمل. أخذت أفرك جسمي بطحالب البحر والرمل. أفرك وأفرك. شعر رأسي أكثر تدبّقاً من جسمي. ظلت أحك جسمي وأغوص في الماء حتى احمر جلدي. ظل جسمي متدبّقاً لكن أقل قذارة.

في المساء، بعد تسكع طويل، انبطحت قبالة محطة القطار. فشلت في حمل حقائب بعض المسافرين. كنت ما إن أقترّب من أحد المسافرين حتى يصرخ في وجهي أحد الحمالين:

- ارجع إلى الورااء. امش من هنا. امش يلعن الفرج الذي خرأك. عمرتم لنا هذه المدينة السعيدة مثل الجراد.

شتموني، بصقوا عليّ ودفعونني. شاب أقوى مني ركلني وضربني على قفائي، لكنني بقيت هناك عنيداً. مرة واحدة فقط استطعت أن أقنع مسافراً أجنبياً بحمل حقيبته الثقيلة. بينما كنت أحاول حملها هجم عليّ حمال قوي، شاتماً ودافعاً إياي. حمل الحقيبة وبقيت هناك. اللعنة على الخبزر. القط الذي رأيت في مرفأ مستودع الأسماك ربما هو أسعد مني. إنه لا يستطيع أن يأكل السمك القذر دون أن يتقيأ. سأسرق وأتسول، لكنني في السادسة عشرة. السبتاوي كان على حق: "التسول مهنة الأطفال والشيوخ العجزة. عيب أن يتسول شاب قادر على السرقة إذا لم يجد العمل". هكذا قال لي.

جلس على مقربة مني شاب. أخرج علبة سجائر سوداء وسألني:

- أتدخن؟

هزرت له رأسي وقلت بضعف:

- نعم.

انبعثتُ لُديّ رغبةً في أن أُفنيَ هذا الجسدَ الجافَ بأي شيء. حلقي ناشف
وقلبي يخفق بوهن.

- مالك؟ مريض؟

- لا.

اقترب مني وأخذت منه السيجارة. أشعل وقيدة. قلت له:

- شكراً. ليس الآن.

نهض وقال:

- انتظرني حتى أعود.

شممت السيجارة. إذا دخنتها فسأقيء من جديد دون أن يخرج من
جوفي شيء. سمعت هدير طائرة، رفعت عيني إلى السماء، الهدير يتلاشى
بعيداً دون أن أرى الطائرة. سمعت صوته يقول:

- هاك. يبدو أنك جائع.

اللفافة كانت قد سقطت من يدي. غفوت إذن. مدّ لي نصف خبزة
محشوة بالسرددين المصبر. رأيت في يده زجاجة نبيذ. أخرج من جيبه
كأساً صغيرة وملاًها. شربها وعمره ثمانية. سألني رافعاً الكأس إلى فمه:

- من أين أنت؟

- من الريف.

شرب كأسه. لحس شفّتيه بلذّة.

- متى جئت إلى طنجة؟

- البارحة؟

- وأين تنام؟

- في الشارم. في أي مكان أستطيع النوم فيه.

أكلت بلذة. بعض اللقمة أبلعها دون أن أمضغها. عمر الكأس ومدى لها لي. شربت الكأس دفعة واحدة. الأشياء بدأت تستعيد صفاءها في ذهني. دخت وشربت الكأس الثانية. عندما شربت الكأس الثالثة قال لي:

- هل تريد أن تنام في بيتي؟

تطلعت إليه. عيناه ليستا بريئتين. اللعنة على مثل هذا الإحسان!

- بارك الله فيك. لي عم يسكن في عين قطيوط. سأفتش عن داره وأنا عنده.

- كما تريد.

نفض الكأس ووضعها في جيبه ثم نهض وقال:

- إلى اللقاء. اعتن بنفسك.

لم أحقد عليه. لقد أسكت عصافير بطني. نهضت ومشيت في شارع النخيل. المطاعم غاصة بالناس. رائحة الشواء في الهواء. نسيم المساء ينعشني. الأشياء تصفو أكثر فأكثر في ذهني. الرجال يغازلون مؤخرات النساء الجميلات. توقفت سيارة حذاء الرصيف الذي أمشي عليه. عجوز يشير لي أن اقترب منه. اقتربت من السيارة. فتح الباب وقال بالإسبانية:

- اركب!

ركبت إلى جانبه. ماذا يريد مني؟ هذه هي المرة الأولى التي أركب في سيارة فخمة مثل هذه. يقود ببطء. قلت له بالإسبانية:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

قال راسماً بيده حركة دائرية:

- جولة، جولة قصيرة.

إنه أيضاً يريد مني شيئاً غير عادي لكن لا خوف منه. أستطيع أن أدافع عن نفسي إذا لم يعجبني ما يريده مني. سألني:

- من طنجة؟

- أنا من تطوان.

كنا نتجه إلى إحدى ضواحي المدينة. إنه "حساس". هذا لا شك فيه. أوقف السيارة في مكان مظلم. في طريق مشجرة. المدينة خلفنا متألثة... أشعل ضوء السيارة. ها هي الجولة القصيرة تتوقف هنا. لامس فتحة سروالي بحركة لطيفة. الجولة الحقيقية تبدأ. يفك زراً تلو زر بمهل. أضاء ضوء السقف وانحنى عليه. أنفاسه تدفئه. لحسه ثم أدخل نصفه. أخرجه وأدخله وشيئي يزداد انتصاباً. لم أجرؤ أن أنظر إلى وجهه:

- برافو! برافو! ماتشو! Macho

يلحسه، يمصه، يهيج منبت خصيتي بأصابعه. أحسست بأسنانه وإذا هو عضه من كثرة اللذة! لكي أسرع في القذف تخيلتني أغتصب أسية في تطوان. قذفت في فمه. همهم مثل حيوان بلذة. أخرج منديله ومسح فمه الذي كان يقطر بحليبي. وجهه محتقن. عيناه جاحظتان، شفثاه مرتختان.

زررت فتحة سروالي. شبكت ذراعي حول صدري كأن شيئاً لم يحدث. إن النساء كثيرات. لماذا هو الإنسان لوطي؟ هكذا فكرت.

أخرج علبة سجائر ومدّ لي منها سيجارة. أشعل لي ولنفسه. فتح الراديو. انبعثت موسيقى هادئة، جميلة. ارتخى على مقعده وأخذ ينظر حالماً من خلال واجهة السيارة. أعجبني الفصل الموسيقي. أنا أيضاً ارتخيت وفكرت في وهران وعملي مع مونيكا الجميلة. إنها اليوم مجرد اسم. قد أذكره وقد لا. الفرح والحزن يتصارعان في نفسي. تملكني رغبة في البكاء. ماذا أفعل مع هذا العجوز الذي مصني؟ سأحقد على نفسي والناس إذا ظللت هكذا.

في طريق عودتنا لم نتكلم. أعطاني خمسين بسيطة وأنزلني قرب المكان الذي أخذني منه. صافحني قائلاً:

- إلى اللقاء.

يده ملساء. رخوة. شيعته بيدي قائلاً:

- إلى اللقاء.

استنشقت هواءً مشحوناً بدخان سيارته. حوالى خمس دقائق يمصون خلالها للواحد شيئه ويعطونه خمسين بسيطة. هل كل من هم مثل هذا العجوز يمصون؟ حرفة جديدة تُضاف إلى الحرفتين الأخرين: التسول والسرقة. أخرجت ورقة الخمسين بسيطة وفحصتها. أعدتها إلى جيبى. إن شيئي يمكن له أيضاً أن يرتزق ليعينني على العيش. يمكن له أيضاً أن يتلذذ. أذلك العجوز يجد في مص أزباب الناس نفس اللذة التي أجدها أنا في مص صدور النساء؟ ما زال دافئاً ولزجاً يقطر بين فخذي. هكذا يقحب الناس إذن.

في السوق البراني دخلت مطعماً صغيراً قذراً. طلبتُ صحناً من السمك المقلي ونصف خبزة بيضاء. قبالتى رجلان. يبدو عليهما أنهما يعملان في أشغال البناء. فوق الطاولة الجالس إليها إبريق من الصفيح كان من قبل صفيحة زيت السيارات. نشرب منه ماءً دافئاً ثلاثتنا بالتناوب. تنبعث من داخله رائحة كريهة. حول الطاولتين الأخرين أشخاص آخرون بائسون. كلنا نأكل بصمت. رنين الملاعق والصحون وأدوات الطبخ وصوت المطعمي يأمر الغلام الخادم أن يفعل عملاً ما أو يتركه. أحياناً تسمع تجشآت الذين انتهوا من الأكل تعقبها: "الحمد لله" ممددة الصوت.

دفعت لصاحب المطعنت أربع بسيطات وخرجت. تلاشى عيائي. امرأة جميلة تمرّ وهو ينتصب. أغانٍ مصرية ومغربية تسمع من المقاهي والمطاعم. قرب مقهى وقف شاب سكير، عاري الصدر، يجدف على الله بصوت صارخ ناظراً إلى السماء. خرج شابان من المقهى وأحنيا له رأسه،

وصبّ عليه أحدهما جرة ماء ثم سحباه إلى داخل المقهى. الشابان أيضاً يترنحان. أيكون الغلام الذي أنقذني أمس في المقبرة الآن؟ إذا لم أجده فهل أستطيع أن أنام هناك وحدي؟ اشتريت من البقال خمس سجائر "فيليب موريس" مفردة. حينما اقتربت من مدخل المقبرة فكرت: إن المقبرة هي المكان الوحيد الذي يمكن الواحد أن يدخل من بابه في أية ساعة يشاء، نهاراً أو ليلاً، دون أن يطلب من أحد إذناً بالدخول. معهم الحق، لماذا الحارس؟ ليس فيها أية ثروة. إن الموتى لا يتاجرون، لا يخافون، لا يحزنون ولا يتخاصمون، كل ميت في مكانه. حين يتهدم قبره يدفنون مكانه ميتاً آخر. إذا كان العالم قديماً فإن الأرض كلها قبور.

قَطَعُ الكرتون ما زالت متراكمة في مكانها. هل قبضوه؟ فرشتُ مكاني. ربما يجيء. أشعلت سيجارة. قتلت ثلاث وقيادات وأدنيتهما من الشاهد الرخامي. استطعت أن أفهم من الأرقام أن الميت (لم أعرف أهو رجل أم امرأة؟) قد عاش 51 عاماً. هناك أيضاً نجمة سداسية. نجمة يهودية على قبر مسلم يا للغرابة! ما معنى أن يعيش الإنسان ثم يموت؟ قبور يُعَنُونَ بها وأنا فوقها. ألهذا معنى؟ عضوي التناسلي يُباع بخمسين بسيطة. ما معنى هذا؟ الأسئلة كثيرة، لكني لا أفهم معناها بوضوح. كل ما أعرفه هو أن الحياة يجب أن أحيها. دخنت العقب بلدة ثم أطفاله ونمت.

استيقظت باكراً. غلام جديد ينام في مكان ذلك الغلام الذي أنقذني من حملة المتشردين. تحسست ما تبقى معي من الخمسين بسيطة في جيبي. ما زالت بقية البسيطات في مكانها. كان على حق ذلك الغلام: "ليس هناك مكان أكثر أماناً من المقبرة". أعتقد أن الناس يحترمون أنفسهم أمواتاً أكثر مما يحترمون أنفسهم أحياءً.

اشتريت من باب الفحص نَعْلًا مطاطياً بخمس عشرة بسيطة. قدماي قدرتان ومتعبتان. تناولت إفطاري في مقهى شعبي تفوح منه رائحة الكيف ومأكولات الصباح. دخنت اللّفة الأولى بلدة. غالباً ما تذكرني سيجارة الصباح بتلك التي دخنتها لأول مرة. يوم جديد مع قليل من اليأس

وكثير من الأحلام. سأسرق في السوق كما فعلت مع السبتاوي وعبد السلام. سأحاول قبل أن ينفذ ما بقي لي من النقود.

دخلت السوق. امرأة أجنبية تدفع ثمن مشترياتها ثم تعيد محفظة نقودها الصغيرة المحشوة بالأوراق المالية إلى حقيبتها. انتهت إلى نظرتي نحو حقيبة يدها. شدتها بحرص. قالت لي نظرتها اللطيفة: "ألا تحشم" خجلتُ وخرجتُ من السوق. إنه بؤس العالم يا سيدة العالم. إن الذين يملكون هم أيضاً لا يحشمون. إنهم يشتروننا بأبخس الأثمان. ربما أنت لا تحتاجين إلى أن تبيعي نفسك.

قضيتُ النهار كله تبتلعي وتتقياني الدروب. كانت أجساد النساء التي رأيتهن قد هيجتني بجنون. دخلت مرحاضاً عمومياً واستمنيت على إحدى المؤخرات التي بقيت منطبعة بتشكيلها الجميل في ذهني أكثر من الأخرى. في المساء اكتشفت أنه يمكن لي أن أنام في "فندق الشجرة". بسيطة واحدة يدفعها الداخل ثم ينام حيث يشاء. الإصطبل الكبير تغطيه سقيفة من الأسمنت ينام فوقها الناس حيث يشاءون. الإصطبل الكبير تغطيه سقيفة من الأسمنت ينام فوقها الناس وتحتها الدواب. مقهى، مطعم، حوانيت، بيوت صغيرة للإيجار، بغايا، دكاكين خضر وفواكه، إصطبل يشبه مدينة صغيرة. صاعداً الدرج إلى السقيفة اصطدمت بسكير. امتدت يده إلى وجهي ملاطفاً وقال:

- آ، الغزال! فأين ماشي أهداً الغزال؟

أبعدتُ يده بعنف. قفزتُ درجتين صاعداً بخوف. أطلقَ قهقهات:

- كتضرب ياك العايل! كتنفر! (يمسك في يده زجاجة نبيذ خاوية). استنني. غادي نمشي نعمر هاد القرية ونرجع دابا. عندك تمشي.

هبط مقهقهاً وصعدت خائفاً. سمعته يقول:

- جابك الله هاد الليلة. يا لطيف! أنا راجع دابا. والله ما تفلت من يدي

هاد الليلة.

عشرات الأشخاص منبطحون وجالسون فوق أرض السقيفة. أكثرهم ينامون. يشربون، يدخنون الكيف، يثرثرون ويغنون. سكير يضم إليه غلاماً ثملاً، يبوسه على خده. قال له أحدهم:

- ماشي دابا. خلي العايل عليك. من بعد، من بعد أعمل معه اللي بغيتي. هذي هي البسال. أتقول عمرك ماشفت العاول.

لن أنام هنا. أفضل النوم في المقبرة على أن أنام في هذا البورديل. حينما استدرت لكي أهبط سمعت شخصاً يناديني.

- أيه! أديك الغزال. زيارتنا بركة. أجي تشرب شي كاس معنا، أجي، آش عائدك؟ ماغادي شي ناكلوك.

قلبي يخفق بعنف. يجب أن أشتري سكيناً أو عدة شفرات حلاقة. هبطت الدرج في الظلام الخفيف مسرعاً. توقفت أمام إصطبل الحيوانات. اتجهت إلى ركن وجلست مسنداً يدي على ركبتي متقرفصاً. دخنت واحدة وحلمت قليلاً. هل تعمد الله أن يخلق هذا العالم على هذا الشكل من الفوضى والتنوع؟ رائحة الحيوانات كريهة. على بعد خطوات من مكاني فرص واقفة. شبكت ذراعي فوق ركبتي ونعست. نمت جالساً خائفاً من أن يغتصبوني. أحسست برشاش حار كرية الرائحة يسقيني. أنتفضت برعب. شتمت العالم. الفرس تكمش فرجها وتفتحه وتتحرك إلى الوراء. نهضت بسرعة وابتعدت عن المكان.

عند الباب سألني البواب:

- هل ستعود؟

قلت له بصوت غاضب:

- كلا، لن أعود إلى هذا المكان القذر.

- مالك؟ هل فعلوا لك شيئاً؟

- بالت عليّ فرس.

- لماذا نمت بين كوارعها؟ لماذا لم تنم على سطح السقيفة؟ امشِ إلى الحمام. لا تنم قبل أن تغتسل حتى لا تمرض.

قلت له:

- انصح نفسك.

أقفل الباب من خلفي بصخب. الجو دافئ. الطرق خالية. هل أذهب إلى الحمام كما قال؟ وثيابي؟ بول الفرس تسرب إلى كل جسمي. بدأت أحكّ جسمي. قرب باب المقبرة اليهودية القديمة رأيت ثلاثة مشردين سكارى يشربون ويغنون. ناداني أحدهم:

- آجي! فين ماشي؟

التفت بسرعة خلفي.

- آجي آذاك اغزال؟ آجي عندنا تجلس معنا! ما تخاف شي!

نهض مترنحاً قصدني. قال له أحد رفيقيه:

- اتركه عنك. لسنا في حاجة الآن إلى أولاد.

ركضت نحو السوق البراني. التفت فرأيت السكير يعود إلى رفاقه.

اشتريت صابونة من السوق الداخلي. كان عامراً بالسكارى والبغايا واللوطيين والشحاذين. في طريق البحرية، قرب الجامع الكبير، أوقفني شرطيان مغربيان باللباس الرسمي. قال لي الأول:

- أوراك.

- ليس عندي أوراق.

- من أين أنت؟

- من تطوان.

سألني الثاني:

- أين تسكن؟

- في حي الطرانكات.

في الطرانكات بالذات؟

- نعم، وراء حمام اليهودي.

- هل تعرف مولاي علي؟

- نعم، إنه جارنا، يبيع الخضر قدام دكاننا.

- وماذا تعمل أنت هنا؟

- لا شيء. جئت أبحث عن عمل.

- وأين أنت ذاهب الآن؟

- كنت نائماً في فندق الشجرة وبالت عليّ فرس.

- فرس؟

- نعم، فرس: كنت نائماً في إصطبل الحيوانات وبالت عليّ فرس.

تبادلا نظرة وقال لي الثاني:

- هل تعرف دار الدباغ؟

- لا أعرفها.

- آجي معنا.

عند المنعطف نعت لي دار الدباغ وقال:

- ادخل هناك. ستجد عيناً ماؤها دافئ، اغتسل جيداً وفي الصباح اغسل

ثيابك.

بعد اغتسالي صوبنت سروالي وقميصي عافساً عليهما بقدمي. من
المقهى تسمع أصوات تحتج على الغش في لعب الورق. خرج رجل من
المقهى يترنح وقال لي:

- ماذا تفعل؟ هل أنت أحمق؟ ليس حسناً غسل الثياب في الليل. إنه فآل
سيء.

أنفاسه جد مخمورة. توقفت عن العفس وقلت له:

- بالت عليّ فرس في فندق الشجرة.

- فرس؟

- نعم.

- هم م م...! اغسل اذن نفسك وثيابك حتى لا تمرض. إن الماء يزيل
حتى الجذام.

عندما انتهيت حرت في تجفيف السروال والقميص. عصرتهما
ولبستهما وخرجت.

قرب محطة القطار أخذت أتمشى ذهاباً وإياباً لعل ثيابي تنشف قليلاً.
أنام في إحدى عربات القطار القديمة غير المستعملة أم أذهب إلى
الشاطئ؟ فوق الرمل لن يسألني أحد، لكن في عربة القطار قد يقبض عليّ
الحارس الليلي. تذكرت ما قاله ذلك الغلام: "إنهم يغتصبون الواحد إذا
لم يجدوا ما يسرقون له". كان في جيبى أكثر من عشرين بسيطة. لكن
قد يسرقون ويغتصبون سواء على عربة القطار أو على رمال الشاطئ.
يمكن لهم حتى أن يذبحوا ضحيتهم. ربما عربة القطار أسلم. قفزت فوق
الحاجز. الأحجار الناتئة تؤلم أخص قدمي. خشيت أن يتمزق قاع نعلي
المطاطي - القماشي. سرت بحذر وبطاء. قفزت إلى عربة البضائع. أشعلت
وقيدة. وإذا اعتدى أحد عليّ؟ نزلت إلى الأرض واخترت حجرين حادين.
حين صعدت في المرة الثانية سمعت حفيف تمزق في سروالي. بصقت

شاماً العالم. استلقيت. وضعت حجراً في قبضتي وتركت الآخر قرب رأسي. لا بد لي من شراء سكين. سكين أو شفرات الحلاقة. يجب أيضاً أن أعرث، في هذه المدينة - المتاهة، على مفلس مثلي. ماذا يكون قد حدث لذلك الغلام الذي أنقذني من حملة التفتيش على المتشردين؟

_ 9 _

كنا في مقهى التشاطو، خسرت آخر فلس في لعبة "العيطة". عندما بدأنا اللعب كان صديقي الكبداني يربح وأنا أخسر. بقي هو الراجح وأنا الخاسر. بقيت عندي خمس وعشرون بسيطة حين قال لي:

- ما عندك حظ في هذا اليوم. توقف عن اللعب.

قلت له بجفاف:

- انصح نفسك. أنا أعرف ما أفعله بنفسي وبفلوسي.

كانت حوالى الثانية عشرة والنصف بعد الزوال حين سلف لي الكبداني خمس بسيطات. اشتريت ثلاث بسيطات من الكيف وطلبت شاياً أخضر ببسيطتين.

من خلال شباك السدة أرى السوق الكبير. إنه يوم الأحد. الساحة عامرة بالبائعين الجوالين والمتشردين والمتجولين الذين لا يشترون شيئاً. الريح تهب والسماء غائمة. المطاعم والمقاهي والمتاجر المغربية مقفلة. فوق أبواب بعضها رفعت الراية المغربية والراية السوداء. أصحاب بعض المقاهي الشعبية استغلوا هذا اليوم للقمار. عندما سألت في هذا الصباح التشاطو عن هذه المناسبة الوطنية قال لي بصوته الذي يخرج نصفه من فمه ونصفه من أنفه:

- إنه اليوم المشؤوم!

- ما معنى اليوم المشؤوم؟

- ألا تعرف معناه؟

- لا.

- 30 مارس (آذار) 1912 هو اليوم الذي عقدت فيه الحماية الفرنسية مع المغرب في عهد مولاي عبد الحفيظ. اليوم، 30 مارس 1952 تمر أربعون سنة على حماية فرنسا للمغرب. لهذا صار 30 مارس اليوم المشؤوم.

- واليوم ماذا نريد نحن المغاربة من الفرنسيين؟

- نريد منهم أن يخرجوا. اليوم تنتهي عقدة الحماية.

- هل نطالب أيضاً أن يخرج الإسبانيون؟

نظر إليّ نافد الصبر قائلاً:

- اسمع، ليس عندي وقت الآن للكلام الكثير في هذا الموضوع. اطلع

إلى السدة واستقصِ هناك بعض الرفاق عن هذه الأشياء.

الكبداني كان قد ربح حوالى ثلاثمئة بسيطة عندما أعلن توقفه عن

اللعب. قال له اللاعب الأول بغضب:

- أكمل معنا اللعب.

- وإذا لم أرد أن استمر في اللعب. هل أستمر معكم بالقوة؟

- نعم أكمل.

- أنا جائع. سأذهب لأتغدى.

احتج الأشخاص الثلاثة تباعاً:

- كلنا جائعون، العب معنا.

- وإذا كنت لا تريد أن تكمل معنا اللعب فاقسم معنا ما ربحته لنا.

- نعم، افهم نفسك، هذا هو أحسن حل، إذا لم تكن راغباً في استمرار

اللعب.

ضحك الكبداني هازئاً. أخذ من "السبسي" الذي عمرته له. قال الثالث:

- لن تكون النهاية بخير إذا لم تكمل معنا اللعب. لا بد أن تكمل معنا اللعب.

صاح التشاطو من أسفل المقهى:

- لا أريد الصداق في قهوتي. اخرجوا إلى الشارع وتقاتلوا.

كان التشاطو قد تخلى عن قبض فائدة الربح في كل لعبة بعدما انسحب معظم اللاعبين. لقد تركهم يلعبون اللحظات الأخيرة كما هي العادة. سمع صوت صاخب: - أيها الناس! أيها المغاربة المواطنين! إنكم تعرفون أن هذا اليوم هو اليوم المشؤوم. في مثل هذا اليوم، منذ أربعين عاماً، وبالنضبط في عام 1912 عقدت الحماية الفرنسية على المغرب ولم نعد أحراراً.

تراحمنا على شباك السدة. قال الكبداني:

- إنه المرواني الأحمق بائع الأرغفة المقلية الباكستانية.

- ماذا يقول للناس؟

- ماذا سيقول؟ أحمق يهرج على الناس!

- الأحمق هو أنت. إنه يعرف ما يقول.

- يقولون إنه مخبر يعمل مع المخابرات الإسبانية.

- ليس غريباً. لكنه الآن يدافع عن المغاربة.

- ليس من حقنا أن ننتهمه.

- أوكد لكم أنه يعمل مع منظمة سرية يمولها الإسبانويون الذين يريدون أن يلغى النظام الدولي في طنجة ليحكموا فيها وحدهم.

صاح التشاطو:

- كفوا عن مثل هذا الجدل الخاوي. أنا لا أريد هذه المجالات السياسية في قهوتي. اخرجوا إلى السوق وتناقشوا وتصايحوا.

صاح المرواني بصوت صاخب، رافعاً يديه بحركة حماسية في الهواء:

- الجلاء للاستعمار!

الجموع:

- الجلاء! الجلاء!

المرواني:

- عاش المغرب حراً مستقلاً!

الجموع:

- عاش!

المرواني:

- يسقط الخونة!

الجموع:

- يسقط!

المرواني:

- الجهاد في سبيل الله!

الجموع:

- الجهاد! الجهاد يا عباد الله!

صعدت امرأة "جبلية" فوق صندوق خشبي وأخذت تزغرد. تصايحت نساء أخريات.

هبطنا من السدة ووقفنا نطلّ من خلال حاجز المقاعد والطاولات المتراكمة فوق بعضها. قال التشاطو من فمه وأنفه:

- ارجعوا إلى السدة أو اخرجوا.

قفزت فوق الحاجز إلى الخارج. قلت للكبداني:

- أتأتي أم لا؟

تردد ثم قفز. قال له أحد اللاعبين الخاسرين:

- ارجع إلى مكانك. لا تهتم لما يقوله وجه الزب.

قلت لشاتمي:

- وجه الزب هو وجد أمك.

بصق عليّ. بصقت عليه. رمى علي مقعداً. تباديته. قلت له:

- تفو على فرج أمك!

أراد أن يقفز. التقطت المقعد وأعدته له. تفاداه. لم يتركوه يقفز. قال لي:

- سنرى في ما بعد. سأريك من أنا. سأبصق لك في ثقب مؤخرتك عندما أقبضك.

قلت له قابضاً بجماع يدي على أسفل بطني:

- ستقبض لي في هذا.

صرخ الشاطو:

- اخرجوا إلى الخارج وتقاتلوا. اتبعوهما.

انسحبنا أنا والكبداني. كان في جيبي مقشط وشفرتان للحلاقة. كنت متحمساً لاستعمالها. إما أن أخسر وإما أن أربح. هذا ما خططته لحياتي في هذه المدينة الممسوخة.

- إنهم يريدون أن تبقى معهم هناك لعلمهم يستردون منك ما ربحتهم.

- لست صبيهاً. أعرف جيداً هؤلاء أولاد القحاب.

- كانوا يخادعونك في اللعب. هل فطنت؟

- فطنت، لكنني كنت أتركهم يغشون ما دمت أنا الرباح.

الجموع تتكاثر. رأينا المرواني يشير إلى الجهات التي ينبغي لهم أن يهاجموها. عندما اقتربنا من الجموع قال لي الكبداني:

- معظم هؤلاء الذين تراهم ليسوا من طنجة.

- ومن أين جاؤوا إذن؟

- انظر إلى سحناتهم. إنهم من "الريف".

- الأمر دبره الإسبانيون إذن.

- هذا ما قلته في المقهى.

بدأت الجموع تتجه نحو الحافلات العمومية. كان هناك ركامات من الحجارة وطريق محفزة تعمل فيها الأشغال العمومية. أخذوا يحشون جيوبهم وقلنسوات جلالبيهم بها. تفرقوا في أربعة اتجاهات رئيسية: طريق النظام، عقبة الشاطئ، طريق باب الفحص وطريق السمارين. جماعة هاجمت مركز الشرطة الجنائي بالحجارة. التخريب بدأ في كل مكان عبر السوق. الكبداني وأنا اتجهنا مع الجماعة التي هاجمت طريق السمارين. حجارة تسقط على الشرطي. سقطت خوذته البيضاء. الدم يسيل على وجهه. غطى وجهه بيد ووضع يده الأخرى على حامله مسدسه. هرب

نحو المخضر. يطاردونه بالحجارة. حجر يشهم ساعة كبيرة ثابتة في أعلى جانب باب متجر هندي. الساعة تشير فيها إلى الواحدة والرابع. واجهة متجر الأحذية يكسر. قلت للكبداني:

- لناخذ بعض الساعات وآلات التصوير.

- كلا.

- لماذا لا؟

- لا نعرف بعد ما سيحدث. من المحتمل أن يلقانا رجال الشرطة ويفتشونا.

- انظر الآخرين كيف يأخذون الأشياء.

- ليفعلوا ما يشاؤون. إذا كانوا هم يلقون بأنفسهم في بئر فهل ينبغي لنا أن نلقي بنفسينا معهم؟

وجهاً أخرى تكسر.

- إن مثل هذا المثل باطل. هذا جبن.

- أسرق وحدك إذا شئت، لكني سأذهب وحدي.

طلقات نارية في ناحية المخضر الجنائي. قال الكبداني:

- لقد بدأ رجال البوليس يطلقون النار على الناس.

صرخات. هروب. متجر الأحذية "ريكس" تكسر واجهاته. حشد كبير من المتمردين يفرّون نحو مكاننا حاملين الحجارة في أيديهم. صرخات النساء والأطفال. الباعة يتركون دكاكينهم. جذبني الكبداني من ذراعي:

- تعال. أسرع قبل أن نقتل هنا.

اختبأنا وراء صندوق صراف يهودي قرب باب السوق. تكسير المتاجر مستمر عبر طريق ساحة "بيريث جالدوس". الطلقات النارية تقترب من

مكاننا. صرخات وركض. سمعت طلقات قربنا. رفعت رأسي. رجل يتمرغ على الأرض والدم يسيل من رأسه. شرطي مغربي يجري شاهراً مسدسه في يده بعصبية وحيرة. قال الكبداني:

- احن رأسك ولا تفضحنا.

- أنظر من خلال هذا الشق. هلا ترى جيداً؟

- إني أرى، لكن أسكت.

الجموع تجري صارخة. طلقات نارية سريعة تقترب منا. أراد أن يختبئ معنا شاب مغربي. دفعناه عنا وقلنا له أن يذهب إلى مكان آخر.

- امش بسرعة. مكاننا ضيق.

توقف ثلاثة شبان عن الركض. اثنان ساعدا زميلهما القصير على الصعود فوق سقيفة دكان. طلب منهما أن يختفيا بسرعة.

الطلقات النارية المتتابعة تقترب منا. صراخ وصوت جسم يسقط على الأرض. قلت للكبداني:

- قتلوا واحداً آخر.

- إني أسمع وأرى.

ظهر شرطي حاملاً رشاشاً. قفز الشاب القصير صارخاً فوق الشرطي. رفعنا رأسينا معاً. الشرطي مكنفئ على وجهه والشاب فوقه يضربه على رأسه بقبضة يده كما لو أنه يدق مسماراً. قال الكبداني:

- هل تعرف ذلك الشرطي؟

- من هو؟

- إنه المفتش بارثيا (Barcia). أبوه مغربي وأمه إسبانية.

نهض الشاب وأمسك الرشاش الذي سقط على بعد خطوات منهما.

نهض الشاب وأمسك الرشاش الذي سقط على بعد خطوات منهم. حاول، بحركات عصبية، أن يستخدمه. لم يعرف كيف يشغله. المفتش بارثيا ما يزال مغشياً عليه. رفع الشاب الرشاش إلى فوق وخبطه على الأرض بقوة شاتماً الرشاش:

- يلعن دينك.

ظهر شرطي. أطلق من مسدسه طلقات متتابعة. استدار الشاب صارخاً. أطلق الشرطي ثانية على بطنه. سقط الشاب ملتويًا على الأرض. قلت:

- لقد اخترق الرصاص ظهره وبطنه.

- إني أرى كل شيء.

- لم أر قط إنساناً يموت بهذا الشكل إلا في السينما.

- ها أنت تراه الآن.

- لا بد أنهم يقتلون الناس بهذا الشكل في أماكن أخرى.

- وماذا تظن، هل سيوزعون عليهم الحلوى.

جبين الكبداني عرقان. قلت له:

- اضبط نفسك قليلاً.

- ماذا تقول؟ ابلع لسانك.

- إنك ترتعد.

قال بغضب:

- أنا أرتعد؟ ألن تبلع لسانك؟ هل تريد أن يخرجوا لنا مصاريننا هنا

مثل ذلك الشاب هناك؟

- أنت خواف.

- طيب، لكن ابلع لسانك.

ظهر شرطي ثالث. طلقة في الهواء. ساعد الشرطي الثالث زميله على إنهاض المفتش. التقط الشرطي الثاني الرشاش والقبعة ووضعها له على رأسه سائلاً إياه:

- هل أنت بخير؟

قال المفتش دائخاً:

- لا بأس. لا بأس.

قال له الشرطي الثاني:

- لقد أطلقت على ذلك الكلب.

اقتربوا من الشاب. حركه أحدهم بقدمه ثم ابتعدوا مسرعين في اتجاه السوق الداخلي. قال الكبداني:

- لنغادر هذا المكان قبل أن يكتشفونا.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان.

طلقات أخرى تقترب نحو مكاننا. قال:

- هيا، طر!

خرجت أنا الأول. قلت:

- انظر، إن جسمه يتحرك.

صاح، جاذباً إياي من ذراعي:

- طر! هل تريد أن يطيروا لنا رأسينا؟

رأينا الشرطة الثلاثة يسرعون نحو السوق الداخلي الذي يبدو خالياً.
ركضنا في طريق المنصور. في عقبة الفرنسيين توقف الكبداني ليبول.
أحسست أيضاً برغبة التبول. الهاربون يجرون قدامنا ونحن نبول على باب
متجر.

في رحبة "السقاية" رأينا شاباً حاملاً في يده اليمنى قفة يميل جانبه
الأيمن على ثقلها. قال الكبداني:

- إننا محظوظان.

- لماذا؟

- ها هو قابيل. سنصاحبه إلى كوخه في سيدي بوقنادل.

كان قد حدثني عنه وعن عمله معه حملاً للبضائع المهربة.

- هل هذا هو المهرب الذي يلعب بالمال الكثير كيفما يشاء كما تقول
عنه أنت؟

- نعم، إنه هو، عنده مال يكفي لتغطيتنا به من القدمين إلى الرأس.

فكرت: إن منظره يوحي أنه لا يملك مئة بسيطة في رأسماله. الساحة
خالية. بين حين وآخر يعبرها أشخاص مسرعين. صاح الكبداني:

- قابيل!

- توقف قابيل. وضع القفة على الأرض. سأله الكبداني:

- إلى أين أنت ماش؟

- إلى الكوخ، تعاليا معي. هناك سلافة وبشرى. لقد حلقت لتلك
القحبة القذرة رأسها وحاجبيها.

حملنا، الكبداني وأنا، القفة بيننا وسرنا نحو طريق أمراح. سأله
الكبداني:

- ألا تعرف ما يحدث في المدينة؟
- لا أعرف بالضبط. ماذا يحدث؟ عندما خرجت من مخزن الخمر الإسباني رأيت الناس يجرون قدامي. هذا كل ما رأيته.
- ألم تسمع طلقات النار؟
- سمعت بعضها عن بعد، لكنني لم أعرف ما كان يحدث. ماذا وقع؟
- رجال الأمن يطلقون النار على المغاربة.
- لماذا؟
- بسبب ذكرى 30 مارس.
- والمغاربة بماذا يضربون؟
- بالأحجار، بماذا سيضربون؟
- هل مات كثير من الناس؟
- يطلقون على كل من يمر أمامهم من المغاربة.
- سمع وراءنا صوت يصرخ.
- ابتعدوا عن الطريق! ابتعدوا!
- رجل يحمل على ظهره رجلاً جريحاً ورجل آخر يمشي خلفه. سأل قابيل الكبداني عني:
- والأخ الذي معك ماذا يعمل؟
- كان بائعاً متجولاً "للحريرة" والسمك المقلي. ترك عمله الآن صاحب المطعم لم يكن يعطيه أكثر من خمس بسيطات في اليوم. لقد كان يشتغل عنده من الفجر حتى منتصف الليل.

الكوخ يشرف على منحدر شاطئ سيدي بوقنادل. له باب يؤدي إلى ساحة أمراح وباب يؤدي إلى الشاطئ. فكرت: إنه حقاً كوخ مهرب.

وجدنا سلافة تغني أغنية لفريد الأطرش بصوت يشبه الأنين: "اللي ينسك إنساه ولا يهمك جفاه". رأسها وحاجباها حليقان بالموسى، وجهها يشبه وجه غلام أمرد، لابسة زكدونا رقيقاً مخططاً بالأسود والأبيض واللون الذهبي. بشرى مستقلية على "المطرربة" في يدها "سبسي" لابسة قفطاناً أحمر مزوقاً بأسلاك ذهبية، فوق "دفين شفاف". ذكرني منظرهما بالأيام الثلاثة التي قضيتها في منزل السيدة عزيزة في تطوان. فكرت: في تلك الأيام كان عندي ألف بسيطة. اليوم جيوبي مثقوبة وبلا عمل قار.

كان طاجين السمك بالبظاطا والطماطم (تاجرا) تفوح منه رائحة الصعتر جاهزاً فوق "الطيفور". جاءتنا سلافة بالطشت والإبريق والصابونة لنغسل أيدينا. تحاول أن تتماسك صابة الماء على يدي الكبداني. عند نوبتي نظرت إليّ باسمة، ثم أطلقت ضحكة خفيفة. تتوقف عن صب الماء على يدي ثم تبتسم وتستأنف الصب والإبريق يتمايل في يدها. إنها ثملة. عند نوبة قابيل أخذت تضحك وهو عبوس. غضب. خطف الإبريق من يدها صارخاً:

- أطلقه من يدك يا هذي القحبة القذرة. هل تلعبين معنا؟

- القذرة هي أمك. هل تعرف؟

هددها بصفعة. تدخل الكبداني. أمسك الكبداني الإبريق وأخذ يصب على يدي قابيل. قال لها:

- في المرة المقبلة لن أحلق لك فقط شعرك وحاجبيك، إنما سأكورك من على المنحدر.

- جرب إذا ولدتك أمك رجلاً. جرب وسترى من سيكور الآخر أهي أنا أم أنت!

قالت بشرى:

- ألن تكفأ عن هذا الصداق؟ سأغادر إذا لم تكفأ.

الطاجين لذيد، مليء بالتوابل الحارة. حينما انتهينا من الأكل ظللنا نتحدث عن الحادث المشؤوم، نشرب النبيذ، ندخن الكيف ونستمع إلى أسطوانات أم كلثوم القديمة حتى الخامسة مساءً. كنت قد غفوت فوق المطربة عندما قال لي الكبداني:

- محمد، إننا سنخرج. ابق أنت هنا معهما حتى نعود. عد إلى النوم إذا شئت.

- نعم، سأنام قليلاً.

سمعت الباب يغلق بالمفتاح. كنت قد حلمت بصف طويل من الرجال العراة، في ساحة كبيرة، يمرون واحداً واحداً أمام ثلاثة أو أربعة أشخاص عراة مثلهم واقفين وقدامهم طاولة وأدوات طبية يحزون لهم أعضاءهم التناسلية ويرمونها في برميل. وعلى مدار الساحة المسيجة بمتاريس، تقف حشود من النساء العاريات يبكين هؤلاء الرجال.

سلافة وبشرى نائمتان: بشرى نائمة على جنبها الأيمن، مديرة وجهها إلى الحائط وسلافة تنام على بطنها، مديرة هي أيضاً وجهها نحو الحائط. بدا لي شكلها المتراخي كأنها أنقذت من الغرق. هيجتني مؤخرتها البارزة التكوير. قبل أن أعود إلى النعاس سمعتها تتحرك وتقول:

- ذهب ذلك القواد الكلب.

فتحت عيني ببطء. قامت وأشعلت الضوء. كانت مستيقظة إذن. تمططت بشكل أبرز صدرها ومؤخرتها. انتصبت مثلما هو شيئي منتصب ونظرت إلي بدلال: عيناها ناعستان.

- أحتى أنت تنام؟

جلست وقلت لها:

- أستريح قليلاً.

أخذت زجاجة النبيذ المنصفة وكأسين.

- تعال إلى الحجرة الأخرى حتى لا تفتيق بشري.

أتبعها أم لا؟ إنها هي التي تحكم هنا. ربة كل شيء هنا. عندما وقفت شعرت بدوخة تعبر رأسي واضطراب في القلب. صداع خفيف في جانب رأسي الأيمن. نظرت نحو بشري. أهي أيضاً مستيقظة؟ صمتها يخيف. النساء يتفاهمن مع بعضهن في مثل هذه الظروف. دخلت الحجرة الأخرى. حجرة النوم مفروشة بأشياء فاخرة. لم أر من قبل حجرة في كوخ مفروشة بهذا الشكل الجميل. في ركن صناديق من الكرتون متراكمة. ربما تحتوي على ساعة. جلست على الفراش. أنا على المطربة.

- تعال واجلس إلى جانبي.

ترددت. أضافت:

- هل تخاف من قابيل؟

- نحن لا نعرف بعضنا من قبل. الكبداني هو الذي عرفني به أثناء هروبنا من الحادث المشؤوم.

- إنه غير قادر على فعل أي شيء حتى وإن وجدك نائماً معي. أنا التي أعرفه. إنه مثل كلب ينبح ولا يعض.

فكرت: هذا ممكن، لكنه سيطرمني من هنا وتبقيان أنتما مع بعضكما. لا شك في أنه يحبك. رأيت وسمعت ما يثبت لي أنك الحاكمة.

قمت وجلست قربها على الفراش. ملأت الكأسين بنفسها. مدت يدها إلى علبة سجائر التبغ الأشقر فوق طاولة صغيرة قرب السرير. أشعلت واحدة. رموش عينيها سوداء. عيناها كبيرتان مختلجتان بحمرة. وضعتها لي في فمي وأشعلت أخرى لنفسها. تذكرت للأحرودة في تطوان تضع لي سيجارتها في فمي.

- وإذا استيقظت بشري!

- إنها أختي.

- أختك؟

- مثل أختي.

- فهمت.

نظرت إلي باسمه. شفاتها صغيرتان مثل خاتم الأصبع، في لون الفراولة. المرأة ذات الفم الصغير يكون فرجها صغيراً. هكذا سمعت. ابتسمت لها. شربت كأسها. تمددت على ظهرها. تدخن ناظرة إلى السقف. تضغط على يدي ثم تتركها ثم تأخذها وتفلتها. إنها تتسلى. تتيقظ ثم تشرد، تجلس ثم تستلقي. دافئة يدها، طويلة أناملها التي تغري بقضمها. رغبة دفء اللحم ترعشني. تمددت جنبها. أدخن وأنظر إلى دمية صغيرة معلقة على الجدار. أضغط مثلها على يدها الرخوة، الحارة الآن. تذكرت الشاب الذي لم نتركه يحتمي معنا خلف صندوق الصراف. شعرت بندم. يدق رأسه كما يدق مسماراً. سقط متمرغاً والدماء تسيل منه. صامتان ويداها في يدي تتنزهان. هل يتمتع معها قابيل هكذا؟

تحركنا معاً. تباسمنا. تراقصت عيوننا.

- نتظر. سأخلع ثوبي.

أطفأت سيجارتها في المنفضة. النشوة تدغدغ رأسي وثوبها ينسل من رأسها وذراعيها. سليبها وردى، بلا رافعة صدر. نهداها صغيران مثل ليمونتين. تذكرت مص البرتقال على الشجرة - المرأة في وهران. تلك امرأة من خشب. إن الإنسان يعشق اللحم.

- اخلع ثيابك.

- من الأحسن أن أبقى لابساً. لن يكون لي الوقت كي ألبس إذا جاء

قابيل والكبداني.

- لن يعودا إلا بعد ثلاث أو أربع ساعات، أنا أعرفهما جيداً.

- أين تظنين أنهما موجودان الآن؟

- لا أدري. إنه لا يقول لي قط أين يذهب، لكنني أعرف أنه يتأخر عندما يخرج مع أحد أصدقائه. أنه يكون أكثر حماقة حينما يكون مرفوقاً. ربما ذهباً إلى البورديل.

- لكن الحالة اليوم ليست عادية في المدينة كلها.

- هناك بيوت دعارة كثيرة غير البورديل.

وجهها الغلامي الأبيض المورد الخدين له شكل قلب. أغمضت عينيّ وسقط رأسي على صدرها العاري الحار، فكرت: مخدة من لحم تخفق بعنف. هذه الوسادة من اللحم تخفف صداع رأسي. أصابعها تغوص بلطف في شعري الغزير. يدي تمتد في عماء إلى رأسها. نسيت أن رأسها حليق. دغدغت شعيراتها المنتصبة كفي. حين ألاطف رأسها من جبهتها حتى قفاها يقف شعرها. لا بد أنه يغار عليها حتى يحلق رأسها وحاجبيها. داعبت تصلب نهدا الداخلي الكروي. تتدغدغ أكثر حين أمص نهدا الأيسر. تغطيه بيدها ضاحكة. هي تريد الأيمن وأنا أريد الأيسر. وبين لعبة الأيسر والأيمن صارت تتدغدغ في كليهما. لعبنا قليلاً ضاحكين. بين هذا وذاك صرنا طفلين.

شغلت يدها في أزرار فتحة بنطالي. أطل قائماً في يدها. نزهت يدها عليه من حشفته إلى منبته. تحك به شفري فرجها. عانتها سوداء وقاس زغبها. خشنة عانتها مثل رأسها. أنا ألح على الولوج وهي تلح على الحك. تضغطه. تخنقه، تقيس حجمه هبوطاً وصعوداً في يدها المكورة. أنا أعد فقرات عمودها الفقري. انتشلته من يدها. نتداخل. نتخارج. تضمني إليها بساقيها وذراعيها. قلت له: اجعل نفسك قوياً معها. كن صديقاً لشيئها أيها الأعور.

أفقت على صوت بشري:

- سلافة، قومي. هل أنت نائمة؟

جلست بسرعة على حافة السرير وسألت بشري:

- ألم يعد الكبداني؟

أجابتنى بعد هنيهة:

- ليس بعد.

ذهبت إلى حجرة الجلوس. سمعت سلافة تقول لبشري:

- لم يعد بعد ذلك القواد.

وجدتها جالسة تدخن سيجارة. قالت لسلافة:

- أخاف أن يكونوا قد قبضوهما بسبب ما وقع في المدينة.

- لتحرقه النار.

دخلت المرحاض واغتسلت: حينما خرجت وجدت سلافة خفيفة، مرحة. حدقت في باسمة. نشوة الانتصار بادية على وجهها. جلست على المطربة. انحنت عليّ وأمسكت وجهي بيني يديها ملاطفة إياه وقلبي يخفق بعنف. باستني في فمي كما لو أنها تقبل طفلاً. ابتسمت لها ورأيتها تدخل المرحاض. ذكرتني بفتاة عين قطيوط. أين هي الآن؟ وضعي الآن يختلف. بشري جالسة مهمومة واضعة مرفقيها على ركبتيها ووجهها بين كفيها. بعد لحظة قامت ووضعت في الحاكي أسطوانة "أكذب نفسي" لأم كلثوم. تذكرت تطوان وحي عين خباز والحشاشين والسكراري في القهوة التي عملت فيها. كدت أنتحب. بدت لي جميلة طفولتي في ذلك الحي.

المفتاح يدار في القفل. دخل الكبداني ثم قابيل. يبدوان متعبين وحزينين. سألت الكبداني:

- ماذا هناك من جديد؟

خفض صوت الحاكي وأم كلثوم تغني: "أكذب نفسي عنك في كل ما أرى".

- كل شيء انتهى الآن. خرجوا وقتلوا كثيراً من المغاربة.

دخل قابيل حجرة النوم وجلس الكبداني قبالي. خرجت سلافة من المرحاض وسألت الكبداني:

- أين كنتما؟

- كنا في مهمة.

قالت ساخرة:

- قل لي بصراحة بأنكما ذهبتما إلى البورديل وكنتما في دار السعية الكحلا أو في دارالزهرة الحمقا أو عند برغوثة.

قبل أن يجيبها الكبداني قال لها قابيل:

- ألن تغلقي فمك القذر؟

صرخت:

- الفم القذر هو فمك.

ثم دخلت حجرة النوم. وقف الكبداني وقال لي:

- لنخرج للحظة ثم نعود.

خرجنا من الباب المؤدي إلى منحدر سيدي بوقنادل. صفعني هواء بارد. أشعلنا سيجارتين. أضواء البواخر الراسية في الميناء رائعة. قال:

- سأخبرك بشيء جديد يهمك أن تعرفه.

- ما هو؟

- لقد وافق قابيل على أن تعمل معنا غداً.

- هذا مهم جداً.

- لكن بشرط.

- ما هو؟

- أن تبقى هنا في الكوخ هذه الليلة ونهار الغد كله حتى يحين موعد العمل في المساء.

قلت لنفسي: هذا ما أريده.

- ولماذا هذا الشرط؟

- سأشرح لك: قابيل لا يعرفك جيداً بعد، وهو يخشى أن تبوح بسر العملية لأحد.

- إنني فهمت.

- أنا أعرفك، لقد تحدثت إليه عنك وأقنعتته بأنك جاد ومخلص وشجاع.

- شكراً.

- لقد سبق له أن وشى به بعض الحمالين مرات كثيرة. هو مقتنع اليوم أن وقوعه في فخ رجال الجمارك أو رجال الشرطة السرية سببه وشاية الحمالين الجدد. يحدث أحياناً أن يكون الجمركيون أو الشرطة هم الذين يرسلون هؤلاء الحمالين الوشاة ليعملوا مع المهربين. بسهولة يعرف مكان العمل، الساعة، وأحياناً يعرف حتى نوع السلعة المهربة. إن الحمالين يأخذون مبلغاً مضاعفاً ثلاث أو أربع مرات من البوليس السري أو من رجال الجمارك أكثر من المبلغ الذي يتقاضونه من المهربين.

- غريب.

- وأيضاً يشعرون أنهم محميون.

بعد صمت أضاف:

- قابيل شخص طيب، عيبه هو أنه بخيل. في غالب الأحيان يدفع من يعمل معه إلى أن يسرقه لكي يأخذ أجرته التي يستحقها. (أضاف): ليس سخياً إلا مع النساء. مع نساء من نوع سلافة.

سألته:

- أهو يغار على سلافة؟

- أنه يعرف أنها تستطيع أن تفتح فخذها حتى لقرد.

- وإذن.

- مع ذلك يحبها.

- لكن لماذا حلق لها شعر رأسها وحاجبيها؟

- حلق لها رأسها وحاجبيها حتى لا تغيب طويلاً. أحياناً تغيب عنه أسبوعاً أو أكثر.

- هكذا يحبها إذن.

- بجنون.

- وأين تكون عندما تهرب منه؟

- تسكر وتقحب في سهرات منازل الأصدقاء والناس.

- وهي، أتعبه؟

- وهل مثلها تحب؟ تحب ماله. إنها تصارحه بذلك. سمعتها يوماً تقول له: "أيامك خسارة معي. فتش عن غيري تحبها. ينبغي لك أن تفهم أنني لا أحبك".

- وبماذا يجيبها هو؟

- إنه لا يصدقها. يعتقد أنها تحبه أيضاً على طريقتها. لم أره قط يضربها.

- إنه شخص غريب.

- هو يعتقد أنها قد سحرت له.

- وهل تعتقد أن هذا صحيح؟

- كلا، إنها خرافة. إنه يحبها وكفى.

- ولكن كيف استطاع أن يخلق لها؟

- أسكرها ووضع لها الحشيش في الشاي. عندما نامت حلق لها بالموسى.

- وماذا فعلت معه عندما أفاقت؟

- كسرت بعض أدوات المنزل وسبته وأقسمت أنها ستنتقم منه ذات يوم.

- وبشرى؟

- إنها صديقتها. سلافة أيضاً تكون مجنونة حين تهجرها بشرى.

- أليس لبشرى عشيق؟

- لا أدري. أعتقد أنها لا تحب إلا نفسها. مزاجها صعب، لكنها طيبة، لا تحقد على أحد. لا تتكلم إلا عند الضرورة. الحق يكون معها دائماً إذا هي تكلمت.

- لاحظت ذلك.

أشعلنا سيجارتين أخريين. فكرت في أن أطلع الكبداني على ما فعلته مع سلافة، لكنني خفت أن يغار أو يحسدني. ربما يخبر قابيل ليبرهن له على إخلاصه الحميم.

حينما عدنا إلى الكوخ كانت أم كلثوم أيضاً تغني بصوتها القوي:
إني أغار من الكؤوس فجنبي
كأس المدامة أن تقبل فاك

_ 10 _

في الصباح بقينا، سلافة وأنا، في الكوخ. قابيل والكبداني خرجا دون أن يخبراني عما سيفعلانه في الخارج. بشرى ذهبت لتزور أمها. لم ترها منذ بضعة أيام. خمنت أن يكون قابيل والكبداني قد ذهبا ليهيئا الوسائل التي سنعمل بها في عملية التهريب. سلافة تنظف حجرة النوم وأنا مستلق أدخن سجائر شقراء وأفكر في وضعي الجديد بقلق.

- سلافه، هل هناك كأس خمر؟

أطلت عليّ باسمه:

- انتظر قليلاً. سنفتح زجاجة نبيذ ونشربها معاً.

ابتسمت مرة أخرى واختفت. فكرت: لقد دخلنا في لعبة العشق. القلق يتصاعد في نفسي. إن إغراءها بدأ يشقيني. ذكرني وضعي في الكوخ بذلك الصباح الذي حبسني فيه صاحب الغرسة الذي كنت آكل له إجازة في حي عين قطيوط، لكن الوضع يختلف. أستطيع أن أبقى هنا أو لا أبقى. نهضت. وقفت على المطربة وأطلت من الكوة المفتوحة على البحر. السماء غائمة. البحر هائج. بعض البواخر الكبيرة والصغيرة تعبر البحر. وقفت ورائي. وضعت يديها على كتفي. أنفاسها حارة في أذني اليمنى. تدغدغ جسمي كله.

همست:

- ماذا تنظر؟

أنفاسها ودفؤها جعلاني أنتصب. هل صرت عشيقها؟ البؤس والحب.
أليس هذا رائعاً؟

- أنظر إلى البحر. لم أسافر قط في البحر. إنه يغيرني بالسفر فيه
إلى أبعد مكان في العالم. هل سافرت أنت في البحر؟

- أنا؟ (ضحكت). اسألني فقط إن كنت قد خرجت من طنجة. لم
أسافر في البحر ولا في البر.

تخيلت أنني أراها قادمة إليّ ماشية في الفراغ ثم سابحة ثم طائرة في
ثوب أبيض.

- ألم تخرجي قط من طنجة؟

- أبداً. أين تريد لي أن أذهب؟ مع من؟ (أضافت): عندي إحساس إنني إذا
غادرت هذه المدينة فلن أعود إليها أبداً. أبداً لن أعود.

- عندي نفس الإحساس.

- لماذا؟

- لا أدري.

التفت إليها. فتحت عينيها بقوة في عيني كما لو أنها تقول لي: "ألا
يعجبك ردي على سؤالك؟" لم أستطع أن أقاوم نظراتها. خفضت
نظراتي. إنها بدأت تقلقني. حولت نظراتي نحو الباب.

- نحو ماذا تنظر؟

- نحو الباب.

- ماله؟

- لا شيء.

- فيم تفكر؟ أنك تفكر في شيء.

- أفكر في الباب.

- لماذا؟

- أكره أن يقفل عليّ أحد الباب.

جلسنا. فكّرت في الموت. الحب دائماً يجعلني أفكر في الموت. أحس نفسي سارقاً ومسروقاً. زجاجة نبيذ وقدحان فوق الطيفور.

- أنا أيضاً كان يضايقني أن يقفل عليّ أحد الباب، لكنني تعودت.

- أنا لم أستطع أن أعود، ولا أريد أن أعود.. إنني أشعر كأنني في سجن.

- عندك الحق.

إننا الآن سيّ، أنا وهي، أمام هذا الباب المقفل: هي عشيقه قابيل وأنا حماله الذي لا يثق فيه بعد. فكّرت أن أقوم وأكسره، لكنني سأفسد كل شيء: صداقتي مع الكبداني، علاقتي بسلافة وإمكان أن أصير حمال قابيل مثل الكبداني الذي يثق فيه.

- في أي شيء تفكر؟ كفاك من التفكير. أفتح الزجاجه.

أخذت المبزل من فوق الطيفور. قالت بعد لحظة:

- عندي شيء أقول له لك.

نظرت إليها:

- ما هو؟

- أن تغادر طنجة إذا شئت.

نظرت إليها بإمعان.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان. إلى الدار البيضاء، مثلاً.

فكرت أن أقول لها: ورأسك وحاجباك الحليقان؟ لم أرد أن أحزنها.
ربما هي ناسية.

- وماذا سنفعل هناك؟

- أي شيء.

فتحت الزجاجاة وملأت القدحين.

- لكني لا أتقن أي عمل. وأنت ماذا ستفعلين؟

- أستطيع أن أقوم بأي عمل. أن أعمل، مثلاً، خادمة عند إحدى الأسر
الفرنسية. إن صديقتي فضيلة هناك وجدت عملاً بمجرد أن وصلت
واتصلت بأسرة فرنسية.

فكرت في الكبداني الذي قال لي بأن سلافة تكون مجنونة عندما
تهجرها بشرى.

- وبشرى؟

- ستذهب أيضاً معنا.

فكرت: أليست حمقاء هذه المرأة؟ قلت لها بخبث:

- فهمت جيداً ما تقولين.

- إنها طيبة. ما لها؟ ألا تراها طيبة؟

- لم أقل عيباً فيها. إنني سألتك فقط.

قالت بتوتر:

- إنها أخت. أنك لا تعرفها بعد. حين تعرفها ستعتبرها كأختك.

فكرت: إنني أفهمك الآن جيداً يا سلافة. سنصير أخويها وتصير أختنا التي تصالحنا عندما نتخاصم. هي الرزينة ونحن الطائشان. مددت لها كأسها. مدت لي كأسها لأشربه من يدها وجعلتني أمد لها كأسي لتشربه من يدي. ذراعانا متقاطعان شاربين ببطء. ابتسمنا كطفلين. حركة رائعة لم أتمتع بها من قبل. نظرت نحو الباب. نظرت هي أيضاً. طلبت فمي بعينيها الناعستين. مالت عليّ. تسكب فيه شيئاً فشيئاً ما تبقى من النبيذ في فمها. أمتلئ بلذائذ كثيرة من خلال هذه المرأة. انسحبنا إلى حجرة النوم.

قبل المضاجعة وبعدها يكاد يغلبني البكاء. لا أعرف لماذا!

كنا في قاعة الجلوس عندما دار المفتاح في قفل الباب. فريد الأطرش يغني: "أمتي تعود يا حبيب الروح؟" وسلافة تفكر. لا هي حزينة ولا هي فرحة. لا أعرفها إلا عندما تبتسم أو تصرخ. من يدري ما تفكر فيه الآن؟ ربما هي قلقة لأنني لا أجيئها بصراحة عن مشروع مغادرتنا طنجة إلى الدار البيضاء. تركتها لنفسها. دخل الكبداني حاملاً قفة مملأ بالتسويقة، متعباً. قلت له:

- آ. قابيل، جئت!

نظر إليّ باستغراب، اعتذرت له باضطراب:

- عفواً كنت أفكر في شيء. ما هي الأخبار؟

- أف، مصيبة.

وضع القفة قدام سلافة وقال لها:

- هاك، أقلي السمك كله، هذا ما قاله قابيل.

قالت بحدة:

- أفي هذه الساعة تأتيني بالسخرة؟

- كنا مشغولين في مهمة.
- ماذا يهمني أنا؟ كان ينبغي أن تأتيني بالسخرة قبل الآن.
- فكرت: أنها تكذب. سألته:
- هل حدث شيء جديد؟
- لقد اتضح الآن كل شيء. الإسبانيون هم الذين خططوا للحدث المشؤوم.
- إذن ما كانوا يقولونه عن المرواني في مقهى التشاطو صحيح؟
- ربما. من يعرف! ما يعرفه معظم الناس حتى الآن هو أن الإسبانيين هم سبب المأساة المشؤومة.
- استغلوا إذن ذكرى 30 مارس واستعملوا المغاربة في هذه القضية كبيادق.
- هذا ما يبدو.
- هذه مصيبة.
- لقد مات عشرات المغاربة ولم تمرّ إلا ست أو سبع جنائز من السوق الداخلي بعد أن صلّوا على الضحايا في الجامع الكبير.
- والأموات الآخرون؟
- لا بد أنهم أخفّوهم حتى لا يثيروا غضب المواطنين المغاربة. إن معظم الذين ماتوا ليسوا من طنجة. إنه سهل دفنهم سراً.
- بعد لحظة سألته:
- هل يسمحون للناس أن يتجولوا في الشوارع؟
- نعم، لكن الحراسة ما زالت شديدة في جميع الطرق. يلقون القبض على المشبوهين. إن العسكريين يتعاونون مع رجال الأمن في الحراسة.

- وقابيل؟

- ذهب إلى منزل أبويه. (أضاف): وبشرى، ألم تعد بعد؟ قالت سلافة:

- ليس بعد. لماذا لا تذهب وتصحبها معك إلى هنا؟ قد تكون خائفة من العودة بسبب الحراسة. (أضافت بصوت رقيق فيه رجاء): اذهب وائت بها.

- لا أعرف أين تسكن.

- تسكن في دار البارود قدام مقهى الماكينة. اسأل عنها أي واحد تجده هناك يدلك على مسكنها. لا بد أن تجد بعض الأطفال يلعبون في الحي. إنها معروفة في حيها.

- ستعود وحدها. (أضاف): الناس لا يخرجون إلا لما هو ضروري وقريب من منازلهم. أما الأطفال فلم أر ولو واحداً طوال الصباح.

قالت بحدة:

- خلاص. الفناء في العالم. إنك لا تريد أن تذهب وكفى.

- ليس هكذا، إنما...

قاطعتها غاضبة:

- كفى، أرجوك لا تقل لي شيئاً أكثر.

بعد لحظة قالت كما لو أنها تكلم نفسها:

- أنا أعرف ما سأفعل بنفسني: أحلف لكم أنني إذا بقيت هنا معكم فابصقوا وبولوا عليّ:

قال لي:

- لقد ربّنا كل شيء. هيئ نفسك للعمل الليلة. سيعمل معنا ثلاثة حمالين آخرين. سنستخدم سيارتين: واحدة لشحن السلعة والأخرى لنقل

الحمالين. أنا سأتكلف بنقل السلعة في زورق من المركب إلى الشاطئ. أنت ستكون مع الحمالين الثلاثة الذين سينقلون الصناديق من الشاطئ إلى السيارة. عليك أن تكون شجاعاً، قوياً وسريعاً في حمل كيسك. قد يحدث أن يفاجئنا رجال الجمارك على الشاطئ أو عند دخولنا المدينة. في هذه الحالة عليك أن تعمل بتعليمات قابيل أو شريكه الذي ستعرفه أثناء العملية. قد يحدث الشيء نفسه مع الشرطة السرية أثناء إنزال السلعة في المدينة. لا أكتمك أن العملية لا تخلو من الخطر والمغامرة. ربما يطلقون علينا النار في حالة الفرار. هل فهمت؟

- نعم.

- أحياناً يحدث أن يرشي صاحب السلعة رجال الجمارك أو الشركة السرية. غالباً لا يتفقدون على مبلغ الرشوة. هنا يحدث الفرار والعنف.

- ماذا تقصد بالعنف؟

- أحياناً تدور المعركة بالسلاح.

فكرت: قابيل يملك إذن سلاحاً. ينبغي لي إذن أن أحذر من علاقتي مع سلافة. ماذا يمنع من أن لا يطلق علينا النار. إذا وجدنا في الفراش؟

- وهل قابيل مسلح؟

- أوه، ها أنت، تتدخل في ما لا يعنيك. إنني أقول لك فقط ما يمكن أن يحدث. لا يهمك أو يهمني إذا كان قابيل وشريكه يملكان سلاحاً أو لا. أتفهم؟

- نعم، لكنني أسألك فقط.

فكرت: لقد انزلت على قشرة موز. ربما يعرف الآن أن لي علاقة مع سلافة.

- إنني أقول لك أشياء لا يمكن لي أن أقولها لأي حمال آخر.

- أنا أعرف.

- سألها.

- سلافة، أين السبسي؟

قالت من المطبخ:

- لا أدري. فتش عنه.

فكرت: لقد بدأت تنتقم منه. تذكرت أننا دخنا، هي وأنا، قليلاً من الكيف في حجرة النوم. تظاهرت أنني أفتش معه عن السبسي في حجرة الجلوس. ذهب إلى حجرة النوم. قال:

- لقد وجدته.

قمت ووضعت في الحاكي أسطوانة "عندما يأتي المساء" لعبد الوهاب.

ركبت مع ثلاثة حمالين شبان وشيخ يقود السيارة. كنت أصغرهم. رائحة خمر تفوح من السائق. يسوق جيداً. لا يتعدى مؤشر السرعة 70 كلم. في المنحدرات والمنعطفات ينخفض المؤشر إلى 40 أو 30.

وصلنا إلى رأس سبارطيل حوالى الثانية صباحاً. توقفت سيارتنا وراء سيارة كبيرة سوداء. نزلنا. فتح باب السيارة الأخرى. خرج رجل طويل القامة. قوي. قدرت أنه في حوالى الخامسة والأربعين. اقترب منا بهدوء وسأل السائق:

- كيف هي الحالة في الطريق؟

- حسنة. لم نشك في شيء.

نزلنا ثلاثتنا ما عدا السائق. فهمت مما قاله السائق الشيخ أننا لم نلتق بأية دورية للحراسة. أدركت أن هذا الرجل القوي هو شريك قابيل. قال لنا:

- كونوا رجالاً.

ثم وضع يده على كتفي مركزاً نظراته عليّ:

- من أية ناحية من الريف أنت؟

- من بني شيكر.

- أعرف الشكريين. الريفيون شجعان.

سحب يده وأضاف:

- أنا أعرف الريفيين جيداً. كانوا معي في الحرب الإسبانية الأهلية.

كن رجلاً مثل رجال بلادك.

انشرحت ملامحي. أخرج علبة سجائر ومدّها إلى كل واحد منا.

فكرت: إنها بادرة حسنة منه. قدر من يخون هذا الرجل. إن له شخصية

طيبة وجذابة. قابيل يبدو طفلاً أمام هذا الرجل. قد يكون قابيل أيضاً

طيباً، لكن شخصيته ضعيفة. يلزمني أن أكون مخلصاً. قال لنا:

- هل أنتم مستعدون؟

قلنا له واحداً بعد آخر:

- نعم.

هبطنا منحدرًا صعباً. نسير بين الأشجار والحشائش والصخور.

فكرت: هل من هنا سنعود صاعدين مثقلين بالبضائع؟ قال لي شريك

قابيل:

- نادني القندوسي إذا أردت أن تناديني.

أدركت أن هذا اللقب هو لقب المهنة السري. الطريق التي كنا نسلكها

كانت وعرة. تعثرت مرات في الحفر والحجارة الناتئة. قال لي:

- ينبغي لك أن تحذر جيداً من السقوط عندما تعود حاملاً ثقلك. إن ما في داخل الصناديق يتكسر.

فكرت: ماذا سيكون داخل الصناديق؟ شيء يتكسر. تراه ماذا؟

حينما بلغنا الشاطئ أخرج مصباحاً بطارياً وأخذ يرسل علامات نحو البحر. تلقى جواباً بنفس العلامات الضوئية.

وجدنا هناك قابيل جالساً وحده. إلى جانبه حزمة أكياس وحزمة حبال.

- آ، وصلتكم. هل كل شيء جاهز؟

- كل شيء حسن حتى الآن.

بدأ يسمع هدير محرك وإشارات ضوئية ترسل نحو الشاطئ. أجاب القندوسي بنفس العلامات. البحر هائج قليلاً. الهدير يقترب. قال لنا القندوسي:

- كونوا على استعداد.

توقف الهدير. بعد حوالي ربع ساعة من الصمت أرسلت من المركب علامات أخرى. أجاب عليها القندوسي بنفس العلامات. قال لنا:

- الزورق آت إلينا. لنقترب.

عندما اقتربنا من حافة الشاطئ خلع حمالان نعليهما المطاطين وبنطاليهما. تراءى لنا الزورق ينخفض ويعلو مع الأمواج العالية. دخل الحمالان في الماء. أحاطا الزورق من الجانبين. نزل الكبداني إلى الماء وأخذوا يدفعون الزورق إلى حافة الشاطئ. شرعنا جميعاً ننقل الصناديق إلى الرمل غير بعيد عن حافة الشاطئ. الصناديق لم تكن كبيرة ولا ثقيلة كما كنت أتصور. فكرت بأن ما بداخلها لا بد أن يكون ثميناً: ربما تحتوي على ساعات.

أنزلنا بسرعة تسعة صناديق. سأل القندوسي الكبداني:

- هل هناك خطر في عودتك إلى المركب؟

- ما أظن.

- إذا كنت تعتقد أن هناك خطراً في عودتك إلى المركب فيمكننا أن

نسحب الزورق إلى الشاطئ وفي الصباح ندبر شأننا معه.

- ما أظن أن هناك خطورة.

- احذر جيداً من الصخور.

- إنني أعرف هذه المنطقة جيداً.

قلت للكبداني:

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء. (أضاف): بعد حوالي ساعة سأجدك في الكوخ.

كان زورقه سيجره المركب حتى ميناء طنجة.

شرع الحمالان العاريان حتى النطاق يدفعان الزورق إلى البحر

والكبداني رافع المجذافين عن الماء. رأيت الكبداني يختفي في ضباب الليل

وهدير الأمواج.

وضعنا بسرعة صندوقين في كل كيس. قال لي القندوسي، بعدما

انتهينا من ربط فوهات الأكياس:

- إذا لم تكن قادراً على حمل صندوقين فاحمل واحداً.

قلت له واثقاً من نفسي:

- إنني أقدر أن أحمل ثلاثة صناديق إذا شئت.

أردت أن أتحدى قوتي وسني. ربما ما يدفعه إلى الشك في قوتي هو نحول جسمي. فكرت: إن مثل هذا العمل أفضل لي من التسول والسرقة، أفضل من ترك عضوي يمصه عجوز وبيع "الحريرة" والسمك المقلي للبدويين والعمال في السوق البراني و"فندق الشجرة". أفضل من أي عمل آخر كنت أقوم به من قبل. إنها مغامرة تجعلني أشعر برجولتي وأنا في السابعة عشرة من عمري. إن مرحلة جديدة من حياتي تبدأ في هذا الصباح الباكر.

حملنا الأكياس ومشينا في نفس الطريق التي هبطنا منها. القندوسي يتقدمنا وقابيل خلفنا لا يحمل شيئاً. يبدو أنه ثمل. أعتقد أنه لا يستطيع أن يواجه مغامرة إلا وهو يمثل. كل واحد منا، نحن الحمالين، يحمل كيساً يحتوي على صندوقين. الصندوق التاسع حمله القندوسي في كيس. بعد دقائق بدأ حملي يثقل عليّ شيئاً فشيئاً. ألم في عظام كتفي وفي رقبتني. ألأني لم أضع الكيس في وضع حسن؟ لم أجرؤ أن أغير من وضع الكيس على كتفي حتى لا أجعل القندوسي يظن أنني تعبت ونحن ما زلنا في وسط الطريق. قد لا يستخدمني في عملية أخرى إذا بدوت في هذه العملية الأولى رخواً. قابيل بدا لي أخيراً مجرد شخص فائض. أينبغي لي أن أطيع أوامر أم لا؟ لكن لماذا هذه المشاعر العدوانية نحوه؟ إنه حتى الآن طيب معي. عليّ أن أتخلص من هذه المشاعر الشريرة رغم أنها تخفف عني ألمي. سأصمد. هذا أفضل. سأصمد رغم أنني أحس بكتفي تتملان وعظام رقبتني تطقطع. ألأهت قليلاً وحلقتي ينشف. عياء تنفسي ربما هو ناتج عن كثرة تدخيني السجائر الشقراء والكييف. سلافة سبب في هذا العياء. لقد ضاجعتها أربع مرات البارحة. ها أنا الآن أشتاق إلى مواقعها. سأجامعها إذا نجحت هذه المغامرة وسبقت قابيل والكبداني إلى الكوخ. لكن والمفتاح؟ الأجر الذي سأقبضه عن عملي هذا يبدو لي مقدماً تافهاً ما دمت أجد كل شيء في الكوخ. قيمة المال نافعة لي فقط خارج الكوخ. أتمنى الآن لو كانت معنا سلافة. أن تمشي أمامنا دون أن تحمل شيئاً. هل بدأت أحبها؟ مشاعر عدوانية تملكني فجأة نحوها. أتخيلني

أسبها وأصفعها كي أثير غضبها. أحبها غاضبة أكثر مما أحبها هادئة. أحبها حزينة أكثر مما أحبها فرحة. أحبها حمقاء. أحبها كما تكون مع قابيل، مثلما أراهما يتشاكسان.

عندما بلغنا الطريق وجدنا السائقين خارج السيارات ينتظراننا. تعاوننا معنا بسرعة على شحن السلعة في السيارة الأولى. ركب القندوسي وحده في سيارة السلعة وركب معنا قابيل في سيارة الحمالين. كانت سيارتنا تسبق الأخرى. مسافة حوالي مئة متر تفصل بين السيارات. السرعة متوسطة. فكرت: لا بد أن يكون لهذا السبق ولهذه المسافة الفاصلة سر. خلال الطريق لم نتبادل أية كلمة بيننا. بين حين وآخر يسعل الحمال الجالس عن يميني ويسحب نفساً عميقاً من أنفه بحركة عصبية. مررنا بطريق مقبرة الكلاب. عند مفترق طرق بوبانة توقفت السيارات. نزل قابيل ثم رأيت سائق السلعة ينزل ويتجه نحونا. قال قابيل لسائق سيارتنا:

- أوصلهم إلى حيثما يريدون.

مد لي المفتاح قائلاً:

- اذهب إلى الكوخ. لا تفتح إلا للكبداني إذا جاء.

احتل سائق سيارة السلعة مكان قابيل واتجهنا في طريق الدرداب. تركنا سيارة السلعة واقفة في مكانها. تأكدت الآن أن القندوسي وقابيل لا يثقان في أحد. بعد أن تختفي سيارتنا سيقصدان مكاناً مجهولاً ويفرغان سلعتهما. لم يطلب مني أن أفتح له إذا جاء. لا بد أنه يملك مفتاحاً آخر. أتمنى أن يبقى منشغلاً في عمله حتى الغد.

عندما بلغنا عقبة الدرداب قال لنا السائق الذي تفوح منه الآن رائحة الخمر أكثر من ذي قبل:

- إلى أين تريدون أن أوصلكم أيها الإخوان؟

قال اثنان:

- اتركنا في السوق الكبير.

قلت له:

- أنا اتركني في القصبه.

- أنا أعرف.

قال الحمال الذي يسعل:

- أنا أيضاً اتركني في القصبه.

نظرت إليه. نظر إليّ هو أيضاً دون أن نتكلم.

في السوق الكبير نزل الحمالان. رأينا شرطيين يتجولان. دخلت السيارة من باب الفحص. الشوارع خالية. شرطيان آخران يفقان تحت شرفة إحدى العمارات. خشيت أن يوقفا سيارتنا ويطلبنا منا أوراق التعريف الشخصية.

في ساحة القصبه نزلنا أنا والحمال وبقي السائقان مع بعضهما. قلت لرفيقي:

- أنا سأذهب من هنا إلى أمراح

سعل وقال:

- تلك أيضاً طريقي.

لم أجرؤ أن أسأله عن سير العملية التي قمنا بها. بعد لحظة سألتني:

- أهو الكبداني صديقك؟

- نعم.

- إنه شاب طيب. (أضاف): أهذه هي المرة الأولى التي تعمل فيها حمالاً

في مثل هذا العمل؟

- نعم، لأول مرة.

- وقابيل صديقك؟

- الكبداني هو الذي عرفني به. وأنت تعرف قابيل جيداً؟

- كلا. أنا أعرف القندوسي. إنه رجل شجاع. رزين. إذا وعد بشيء يفي به. كل حمالي التهريب يحبون العمل معه.

- أنا سأذهب من هنا.

- إنك تسكن مع قابيل إذن.

- كلا. إنني مجرد ضيف عنده. ليس لي مكان ثابت أنام فيه.

تودعنا ودخلت في ظلام الدرب. لا أسمع سوى خطواتي. سمعت مواء قطين ثم معركة. مرّ قدامي أحدهما يطارده الآخر. لا بد أنهما ذكر وأنثى. القطة هي الهاربة كما هي العادة. أتمنى ألا تكون سلافة مثل هذه القطة في هذه الساعة. المضاجعة في نهاية الليل. ستكون أول تجربتي.

وضعت أذني على باب الكوخ. القطان يتماوان بعيداً عني. أدخلت المفتاح بمهل وفتحت. حجرة النوم مضاعة. أهي ما زالت يقظى؟ أقفلت الباب تاركاً المفتاح في ثقب القفل. دخلت حجرة النوم. على الطيفور زجاجة نبيذ والسبسي وعلبة الكيف. تنام على جنبها الأيمن منكمشة على نفسها. أشعلت الضوء في حجرة الجلوس. رأيت بطانيتين ووسادتين فوق المطرربة. فكرت: بطانية ووسادة لي والأخريان للكبداني. خلعت ثيابي. سمعت حركتها في الفراش. عندما دخلت وجدتها قد غيرت وضعها. تدير وجهها إلى الحائط وما زالت منطوية على نفسها. جلست على حافة السرير واضعاً يدي على كتفها. ترددت في إيقاظها. تمددت بهدوء وراءها. قالت بتذمر:

- إن قدميك باردتان كالثلج.

بعد لحظة بدأت يدي اليمنى تتنزه في بستان جسمها: في صدرها برتقال وتفاح، في مؤخرتها الإجاص والخوخ وبين فخذيه الكاكي و... نزعت لي يدي بسرعة عندما بلغت شجرة الكاكي. قالت:

- لا تلمسني هناك. فيّ الدم. نمّ. إذا كنت ستنام.

- فيك الدم؟

- نعم، فيّ الدم. ألا تعرف هذا في النساء.

تذكرت مونيكا في الحمام تنظف شيئها الملوّث بالدم. الآن هي إذن مثل مونيكا.

- أفهم الآن، (أضفت): وكم سيبقى فيك الدم؟

- أف! ثلاثة أيام على الأقل.

فكرت: ها هي فرصة مضاجعتها في الفجر قد ضاعت. شيئى منتصب في منطقة الخوخ. حين أراد أن يتنزه أجفلت منقلبة على ظهرها قائلة:

- احشم قليلاً. هذا ما لن أفعله معك.

- مجرد نزهة قصيرة ويتم الأمر.

- ماذا تقول؟ أنت أحمق أم ماذا؟

- ولماذا لا؟

- هذا الشيء لا يفعل مع النساء. عيب وحرام. أتفهم الآن؟

- حرام؟

- نعم، حرام.

تمددت على ظهري مثلها. أتأمل فوق الغطاء بروز شيئى المنتصب.

كيف أجعله ينام؟ إنه عنيد. لأول مرة أراه عنيداً بهذا الشكل. ضغطت على يدها في يدي لحظة وضعتها فوقه. انتظرت أن تلاعبه بيدها كما فعلت في أول يوم. لكن يدها ظلت قابضة عليه بتصلب دون أن تتحرك. حين وضعت يدي فوق يدها وجعلتها تلاطفه نزعته يدها وقالت بتذمر:

- اتركني. ألا تستطيع أن تنام دون أن تفعل هذا الشيء؟

في هذه اللحظة كانت يدي هي التي حل محل يدها المتصلبة. بدأت أدلكه وأحممه بلطف. قالت:

- ماذا تفعل؟

- خليني. (أضفت): لا بد أن أفعل له هذا حتى ينام. لو كنت مكاني لفعلت له نفس الشيء.

- ستوسخني. اذهب إلى الحجرة الأخرى وافعل له ما تشاء هناك. (أضفت): أف من شهوة الرجال.

نزلت من الفراش وأنا أتخيلني قابضاً على أسية عارية بين ذراعي قدام الصهريج. دخلت الحجرة الأخرى قابضاً عليه برفق حتى لا يبرد. تغطيت بالبطانيتين وأعدته إلى دفء يدي قبل أن يخور.

في الصباح، حوالى التاسعة، تناولنا الفطور صامتين في حجرة الجلوس. هي شاحبة، حزينة، حالمة. أنا أيضاً شعرت بإنهاك وندم على ذلك الاغتصاب الخيالي. أليس جنوناً أن أتخيل جسم أسية وأغتصبها وأنا لم أعرف أهي ما زالت حية أم ميتة؟ كان أفضل لي لو أنني نمت متدفناً بجسم سلافة. كنت أحس بها إلى جانبي تخفق. تتحرك، ألمسها وأشمها. أسية كانت عدماً في خيالي. كنت أستمى على العدم.

لم يجئ أحد. أهو نرف الدم الذي يحزن سلافة الآن؟ النساء. أحياناً يغتصبن، يلدن وينزفن دماً عدة أيام في الشهر. أخشى أن يكون الكبداني قد سقط في فخ رجال الجمارك. حتى الآن يبقى أفضل صديق لي في هذه

المدينة. ربما تكون حزينة على بشرى التي لم تعد! الكبداني كان على حق عندما تحدث لي عن سلافة وبشرى. ها هو جنون سلافة الحزين قد بدأ. ماذا قد يحدث لها إذا طال غياب بشرى؟ لا أظن غياب قابيل يحزنها. لست أدري. الأمر غامض. نظرت إليها. إنها غارقة الآن في ذهول تام. مع ذلك يعجبني حزنها هذا. ربما شيء ما في نفسها تذكرت خسارته. قد تكون الآن تفكر في ضياعه إلى الأبد أو في وسيلة ما لاسترجاعه. من الأحسن أن أخرج وأتركها لنفسها حتى لا تكرهني. العالم حزين وعضن. نهضت واقفاً:

- سأخرج لأرى ماذا يحدث اليوم في المدينة بعد الحادث المشؤوم.

تطلعت إليّ ذاهلة للحظة. حنت رأسها كما لو أنها لم تستطع أن تفيق من شرودها. ظلت ناظرة في الفراغ وأنا واقف قدامها. قالت بعد لحظة رافعة رأسها بشرود:

- هل دفع لك قابيل أجرك عن عملك معه أمس؟

- ليس بعد.

- انتظرني لحظة.

قامت ودخلت حجرة النوم. لم أرها حزينة بهذا الشكل من قبل. إنها تشبه بشرى اليوم. تعجبت حين ذكرت اسم قابيل ولم تشتمه كعادتها. ربما لأنها ليست غاضبة. بماذا ستفاجئني؟ قلقي يتضخم. ظهرت حاملة في يدها ثلاث ساعات يد وفي اليد الأخرى ورقتين من فئة مئة بسيطة. نظرت إلى المنديل الجميل الأزرق الذي لفت به رأسها. إنها تشبه الآن إحدى الفرعونيات اللواتي رأيت صورهن المنزوعة من بعض المجلات. نظرت إليها بدهشة وخجل.

- هاك هذه الأشياء. بع الساعات واحتفظ بثمانها. لا تقل شيئاً لأحد.

حاول أن تبيعها بحذر حتى لا يعرف قابيل. إن العمل مع المهربين لا يدوم. ابحث لك عن عمل آخر.

الكلمات التي كنت أفكر أن أقولها لها تضيع مني قبل أن أفظها. وزعت الساعات والورقتين على جيوب سروالي وكبوتي. نظرت إلى المفتاح في القفل وسألتها:

- هل ستفضلين الباب من الداخل؟

- نعم.

فتحت الباب وخرجت. حين التفت ورائي رأيته واقفة على عتبة الباب تمسح عينيها. توقفت. أحسست أننا نتوابع لآخر مرة. قد لا أراها أبداً. فتاة عين قطبوط، أسية، فاطمة، لم أر إحداهن بعد. استأنفت سيرتي. لم أستطع أن ألتفت نحوها مرة أخرى. عيناى تدمعان. غمرني إحساس أنها ما زالت واقفة في إطار الباب تتأملني لآخر مرة. قوة نفسية تمنعني من أن ألتفت إلى الخلف. فكرت أن هذه القوة التي تمنعني من الالتفات والرجوع إلى الكوخ ربما هي نفس القوة التي تبقياها واقفة تتأمل اختفائي دون أن تستطيع هي أيضاً اللحاق بي لنرجع معاً إلى الكوخ أو لنمضي إلى مكان مجهول. أودع الكوخ لآخر مرة. ربما أيضاً لن أرى أحداً من رفاق الكوخ¹⁰.

¹⁰. أكتب هذه المذكرات في سنة 1972. لم أر حتى الآن سلافة وصديقتها بشرى. لقد مضت عشرون عاماً. أخبرتني امرأة في سنة 63 أن سلافة وبشرى دخلتا معاً بورديل بوسبير في الدار البيضاء لتحترفا الدعارة رسمياً في نفس سنة 52. بعد شهور تزوجت بشرى نادل مقهى من مدينة الجديدة. بعد فشل زواجها عادت إلى نفس البورديل مع سلافة. لا أدري أين هما الآن.

_ 11 _

كنت جالساً مع ليلي البوّالة في غرفتها. للأزهور، صاحبة الدار، تخدمنا، أحياناً، بنفسها. منذ أن غادرت الكوخ وأنا أسكر. الفتيات في الطابق الأسفل لا يكفّضن عن الثرثرة. ضاجعت خلال ليلتين ثلاثاً منهن. رشيدة أفضلهن. تتلوى في الفراش مثل حية. قال لي حميد الزيلاشي عن ليلي البوّالة بأنها تبول في الفراش أثناء النوم. حدث له معها ذلك ذات ليلة. سأنام معها الليلة لأرى إن كانت حقاً تبول في الفراش. صبت ثمالة النبيد من الزجاجاة في الكأسين وقالت:

- سنطلب زجاجاة أخرى. أخرى وأخرى حتى نسكر.

قامت ووقفت على عتبة الباب رافعة الستارة بيدها ونادت:

- للأزهور، آجي عندنا.

تركت الستارة تنسدل والتفتت إليّ قائلة:

- مالك؟ إنك مهموم. هل وقع لك شيء؟ أأست مسروراً معي؟ قلت

لها مع نفسي: ليس هناك ما يفعل في هذا الزمان غير أنت والخمر. أنت أو سواك. نظرت إليهما باسماء:

- أفكر في بعض الأشياء.

- مثل ماذا هذه الأشياء..؟

جلست وابتسمت لي. أكره أن أتكلم حين لا أريد. أشعلت سيجارة وضعتها في فمي ثم أشعلت أخرى لنفسها. فكرت: هذه الحركة أفضل من الكلام عن لا شيء. تذكرت سلافة: تأملت جسدها. جسدها أكثر امتلاءً

من جسد سلافة وأجمل. شعرها طويل، أسود وأملس. سأتغطى به. نزهت عيني في جسدها كله. قالت:

- مالك تتأملني هكذا؟ ألا أعجيبك؟

أكره المرأة حين تعتبر نفسها مثل سلعة.

- قلت لك بأني أفكر في بعض الأشياء.

- لا تفكر كثيراً في هذه الأشياء. إنك تبدو حزيناً. أهي امرأة تحبها؟

- لا أعرف بعد ما هو الحب.

قالت للأزهور قبل أن تدخل:

- ها أنا جئت. خير إن شاء الله.

طلبت منها ليلى أن تدخل. فاحت منها رائحة عطر عربي قوية.

- ها أنا. ليلة سعيدة.

قالت ليلى:

- أعطنا زجاجة أخرى.

قلت لها:

- سأبيت مع ليلى. كم؟

- ستون بسيطة فقط. لغيرك لا أقل من مئة بسيطة.

دفعت لها الستين والخمس والعشرين ثمن الزجاجاة الأخرى. صوت فتاة

تنادي من الطابق الأسفل على للأزهور.

- أنا جاية.

ثم قالت:

- أف! كم تصرح رشيدة!

قالت وهي تهتم أن تخرج:

- سأرسل لكما الزجاجة مع رشيدة أو عليوة العروسية.

خطوات ثم دقتان على الباب. قالت للأزهور:

- من؟

قال الصوت الذي أعرفه جيداً:

- أنا، هل ممكن؟

أزاحت للأزهور الستارة جانباً وظهر القندوسي. قالت له للأزهور:

- جانا الخير. أنت هو إذن. يعيش من يراك. ما هذه الغيبة. غبت عنا

كثيراً.

قال لي:

- أنت هنا مختبئ وأنا أبحث عنك كالأحمق في كل مكان. هيا. قم.

قالت للأزهور بلطفها كالعادة:

- ألسي القندوسي، اجلس معنا شوية. اشرب شي حاجة.

اعتذر لها ووعداها أن يعود غداً أو بعد غد.

عندما قمت سألتني للأزهور:

- وأنت، هل ستعود هذه الليلة؟

قلت لها تلقائياً:

- طبعاً سأعود. ألم أدفع لك ثمن المبيت مع ليلى؟

قالت:

- دق على الباب إذا وجدته مقفلاً.

سألتنى ليلى:

- متى ستعود؟

نظرت أنا إلى القندوسي وقال لها بمرح:

- سيعود وقتما يشاء. إذا تأخر فنامي، لكن وحدك وليس مع زبون

آخر.

ابتسمت ليلى. قالت للأزهور:

- كن مطمئناً على صديقك. ليس لنا سبعة وجوه. وجهنا واحد مع

الجميع.

هبطنا وتركنا للأزهور مع ليلى. سألته في الدرج:

- أين هو الكبداني؟

- هذا ليس مكان الكلام. ستعرف كل ما حدث عندما نخرج.

في أزقة حي بني شرقي التقينا بكثير من السكارى. أحياناً يتوقف

ليصافح أحدهم. اكتشفت أنه يعرف كثيراً من الناس. كلهم يسلمون

عليه باحترام وود. كنا نسير دون أن نتكلم. عندما وصلنا ساحة السوق

الداخلي سألني:

- في أي مقهى تريد أن نجلس؟ في الفوينتس؟ في السنترال أو في لا

إسبانيولا؟

تركت له الخيار. دخلنا السنترال. قل أن نجلس طلبت كأس كونياك

وطلب هو كأس جين. جلسنا في ركن خال. سألني:

- لكن أين كنت؟ لقد فتشت عنك في كل مكان.

- هنا في طنجة. أين تريد لي أن أكون؟

- وأين تنام؟
- عثرت على محل إقامة في القصبية، في طريق بنعبو.
- أليست هي الدار الملاصقة للمدرسة؟
- تماماً.
- أنك تسكن في مأوى اللصوص والمغامرين والبغايا.
- في الفنادق الأخرى طلبوا مني أوراق التعريف. أنا لا أملك أية أوراق.
- صب لنا النادل الإسباني المشروبين في كأسين صغيرين. انسحب النادل وقال لي:
- الكبداني مات.
- قلت بصوت ضعيف، فاتحاً عيني، فاغراً فمي:
- مات؟
- نعم مات. رحمة الله عليه.
- شربت كأسى دفعة واحدة ثم ناديت على النادل. أشعلت سيجارة. شرب القندوسي كأسه.
- قلت له:
- زجاجة كونياك كاملة.
- وافق على أن نشرب معاً نفس الشراب.
- كيف مات؟
- عندما عاد كان المركب قد فرّ من زورق الجمر. اضطر الكبداني أن يعود إلى الشاطئ. لقد اصطدم زورقه مع الصخور. عثروا عليه ميتاً

وزورقه انقذف محكماً إلى الشاطئ.

جاءنا النادل بزجاجة التري. ملاً لنا الكأسين وانصرف.

سألته عن قابيل.

- مقبوض.

- لماذا؟

- يريدون أن يثبتوا عليه موت الكبداني. إنهم يعرفون أنه يعمل معه.

- والمركب؟

أوقفه رجال الجمارك وفتشوه ثم سرحوه.

- وهل اعترف قابيل بشيء؟

- حتى الآن لم يعترف لهم بشيء.

شربت كأسي وملأته.

- إنك ستسکر إذا استمررت بهذا الشكل. (أضاف): قل لي، لماذا تركت

المفتاح لسلافة؟

- هي التي طلبته مني. لم أستطع أن أرفض. لقد كانت هي التي تحكم

في الكوخ.

- أعرف هذا. (أضاف): لقد هربت. جمعت ما استطاعت أن تحمله معها

وغادرت.

- إلى أين؟

- لا أعرف. ما هو مؤكد هو أنها غادرت طنجة. هكذا تنتهي دائماً

العشرة مع القحاب.

- وبشرى؟

- لا بد أن تكون قد هربت معها. إنهما لا تفرقان منذ كانتا صغيرتين.

فكرت: لا بد أنهما ذهبتا إلى الدار البيضاء. نظرت إلى ساحة السوق الداخلي والمقاهي الغاصة بالليليين والسكراري وقلت له:

- لقد عادت الحالة إلى طبيعتها بعد الحادث المشؤوم.

- لكن الحالة السياسية ليست بخير في المغرب كله. لا بد أن تحدث حوادث أخرى أعنف من حادث 30 مارس.

لقد جاء الأوان الذي سيطالب فيه المغاربة بالاستقلال.

- الكبداني كان قد قال لي بأنه لم تمر غير ست جنائز والناس يعرفون أن عشرات من المغاربة قد قتلوا.

- هذا صحيح. لقد بدأت تظهر بعض الجثث التي يقذف بها البحر إلى الشواطئ.

- رموا إذن في البحر جثث الذين ماتوا في الحادث.

- معظم الناس يعتقدون أنهم رموا بعض المغاربة أحياءً وجرحى في أكياس. بعض الجثث لم يكن ظاهراً عليها أية آثار للرصاص. عثر الناس على جثة شاب سليمة في شاطئ العرائش والقيد ما زال في يده.

- غريب.

- من المحتمل أن تظهر جثث أخرى.

شرب كأسه وقال:

- الحديث في هذه القضية طويل. عندي خمسمئة بسيطة أجرة عمك في تلك الليلة. كنت سأعطيها لك في هذه الليلة لكن من الأفضل أن أعطيها لك غداً.

- كما تريد.

- سأتركها لك عند سيدي مصطفى، صاحب قهوة الرقاصة. إنه رجل طيب وأمين، هل تعرفه؟

- نعم، لقد ترددت على قهوته مرّات.

فكرت: إنه يشفق عليّ أن أبددها في هذه الليلة.

- عندي شيء آخر أقوله لك.

- ما هو؟

- ينبغي لك أن تحافظ على سرية عملنا. إن الحمالين الثلاثة الذين عملوا معنا رجال شجعان. لا خوف منهم، لكننا لا نعرف ما قد يحدث. إذا قبضوا عليك واستجوبوك، أنكر تماماً أنك اشتعلت معنا. قد يضربونك، لكن عليك أن تصمد.

قلت معتداً بنفسي:

- كن مطمئناً.

- من حسن الحظ أنك لست معروفاً بين الحمالين الذين يعملون في التهريب.

- ألا تظن أن قابيل قد يعترف إذا هم عذبوه كثيراً؟

- إنهم حتماً سيضربونه، لكني لا أظن أنه سيعترف لهم.

- والسلعة؟

- سلّمناها لصاحبها الهنداوي في نفس الصباح.

بعد لحظة قال:

- من الأحسن أن تذهب وتنام الآن في فندقك، لكن حاول أن تغيّر مكان إقامتك. سأحاول أن أعثر لك على سكنى لا يتعدى ثمن كرائها

خمسين بسيطة في الشهر.

- والكوخ من ينام فيه الآن؟

- لا أحد. لقد تركت سلافة المفتاح عند بقال الحي الذي يتعامل معه قابيل. لم يعد صالحاً لشيء ذلك الكوخ بعد أن قبضوا على قابيل.

- قصد أن الكوخ ربما أصبح مراقباً من طرف الشرطة.

- من يعرف! محتمل.

نهضنا. الزجاجاة ما زالت منصفة. قلت له:

- هل تسمح أن آخذها معي؟

- خذها، لكن إياك أن تعود عند ليلى البوالة هذه الليلة.

- لا أفكر في ذلك. سأذهب لأنام.

- أنك ما زلت شاباً وأيام الله طويلة.

تركته يدفع للنادل الحساب ووقفت خارج المقهى أنتظره. صافحني قائلاً:

- أظن أنك تستطيع أن تذهب وحدك إلى فندقك.

- لم أعد طفلاً.

ابتسم وانصرف. سلكت طريق التجارة. ألتقي في الدروب ببعض السكارى والبغايا واللوطيين. الساعة حوالى منتصف الليل. أترنح قليلاً.

في درج جنان قبضان اعترضني شاب سكران. الطريق خالية. التفت خلفه وقال لي:

- آ! الغزال! فأين ماشي؟

- شغلك؟

قال بهزء ماداً يده إلى الزجاجة:

- وهذه الزجاجة في يدك، ألا نشربها معاً؟

قلت له بحده:

- أطلق يدك وامشي فحالك.

تجنبته لأمر. اعترضني بوقاحة قائلاً:

- أنا أسكن قريباً من هنا في درب زيناة بالذات. تعال معي: سنقضي

الليلة معاً. (أضاف بغزل سخيف، محاولاً أن يلمس وجهي): لماذا أنت هكذا

صعب؟

قلت له بغضب:

- ماذا تريد مني بالضبط؟

- أن نقضي الليلة معاً.

قلت له ماسكاً الزجاجة من عنقها في يدي:

- لماذا لا تنام مع أمك أو أختك؟

صرخ كوحش:

- تسب لي الوالدة. لم يبق إلا أنت في حسابي.

تراجعت قليلاً إلى الوراء وهو يقترب مني. سدد لي ركلة إلى أسفل

بطني. تقوست حامياً أسفل بطني بيدي من ضرب أخرى ونجوم الألم

تدور أمام عيني. ركلني مرة أخرى في نفس المكان. سقطت متكوراً على

الدرج. تكسرت الزجاجة. بقي عنقها في يدي. تفاديت ركلة سددها إلى

وجهي. أصابتنني في يدي التي حميت بها وجهي. ركلات أخرى. أحاول ألا

تصيبني إحداها في وجهي. صوت شابة تقول له من نافذة:

- كفاه! لا تضربه هكذا. إنه أصغر منك.

تفاديت ركلة قوية. فقد توازنه وسقط على قفاه. استجمعت قواي
وقمت بسرعة وركلته في وجهه.

- كفاكما! ستقتلان بعضكما.

يحمي وجهه وأنا أركله. حين ضربته بعنق الزجاجاة على يديه اللتين
يحمي بهما وجهه صرخ مثل حيوان:

- أيما وجهي! أيما وجهي! يلعن دينك!

هربت وتركلته يصرخ ويسبني. قالت الشابة:

- هذا ما كنتما تريدانه. هذا ما تريدانه.

سقطت مرات في الدرج. الدم يسيل من وجهي وركبتي ويدي التي
أمسك بها عنق الزجاجاة. كنت ما زلت أسمع صراخه عندما بلغت باب
العصا. أخرجت منديلي ووضعته على أنفي. الدم يسيل من أنفي وفمي.

في مدخل درب بنعبو عثرت في العتبة ووقعت. تركت المنديل وعنق
الزجاجاة هناك. بذلت آخر جهدي لأبلغ باب الفندق. النافذة مفتوحة
والغرفة مضاءة. ناديت بصوت مخنوق:

- الزيلاشي! انزل بسرعة!

أطل عليّ هو ونعيمة وفوزية. قال:

- محمد، مالك؟

- انزل بسرعة!

بعد لحظة فتح الباب ورأيتَه أمامي عاري القدمين ماسكاً سكيناً في يده.

- مالك؟

قلت له ماسحاً دم وجهي بكم كبوطي:

- تعاركت مع سكين. أعتقد أنه يتبعني.

أطلّ بوشتا من النافذة:

- أنا نازل.

سألني الزيلاشي:

- هو هو وحده؟

- قلت باصقاً دمي:

نعم.

- أتمنى أن يكون قد تبعك.

أترنح راكضاً خلفه. عند المنعطف قلل من سرعته. توقّف وأطلّ بحذر على مدخل الدرب ثم ركض وتوقف مرة أخرى عند المنعطف الذي يؤدي إلى ساحة القصبّة. سأل:

- أين تركته؟

- في درج جنان قبطان.

لحق بنا بوشتا. هو أيضاً كان حافي القدمين، ماسكاً هراوة. لم نجده. قالت لنا نفس الشابة من النافذة:

- لقد ذهب. كونوا عاقلين. إنكم أيقظتم سكان الحي.

نساء ورجال يطلّون علينا من النوافذ والسطوح. بقعة دم في المكان الذي تركته فيه. تتبّعنا آثار الدم عدة أمتار ثم توقفنا عند آخر نقطة من الدم. قال الزيلاشي:

- ليتنا نعرف من أين يكون قد سلك.

قلت له:

- كفى. لنرجع.

- لقد أفلت ولد القحبة.

في طريق عودتنا إلى الفندق قصصت عليهما من بداية اعتراضه طريقي حتى اللحظة التي ضربته بعنق الزجاجاة وهربت. بوشتا يمشي إلى جانبنا صامتاً. أعرف أنه لا يستطيع الاقتراب حتى من دجاجة تحضن بيضها. مع ذلك وجوده معنا مشجع على مواجهة أية مفاجأة. سألني حميد:

- هل تعرف تلك الشابة التي كانت تكلمنا من النافذة؟

- لا، من تكون؟

اسمها فتيحة الشريفة. زوجها كان شرطياً مسلولاً يتداوى في منزله. كان يتردد عليه أحد أصدقائه من الشرطة. كانت تدخن وتشرب بإفراط مع صديق زوجها. أحياناً يدخن ويشرب معهما حتى يتقيأ الدم. أظن أنه كان يعرف أن زوجته تخونه مع صديقه. ذات ليلة أخذ يغازلها أمامه. أراد أن يطعنه بسكين، لكن صديقه أخرج مسدسه وأطلق عليه النار.

سألته:

- وهل قتله؟

- مات في المستشفى.

- وهي، ماذا فعلوا بها؟

- أجروا معها تحقيقاً وسرّحوها.

قال بوشتا:

- حكاية النساء في الحب دائماً قذرة.

قال حميد:

- لها معه طفلتان. لقد ربّاهما المسيحيون حتى جعلوا منا ممرضة في مستشفاهم التبشيري. تعرف ثلاث لغات أجنبية، لكن عقلها في فرجها مثل

معظم النساء.

رأينا نعيمة المسرارة وفوزية العشاقة تطلان علينا من النافذة. قال

حميد:

- نعيمة، افتحي الباب.

قالت:

- الباب غير مسدود. ادفعه.

عندما دخلنا سمعت أصواتاً وضحكات وشتائم داعرة. أدركت أن بعض
النزلاء ما يزالون يسهرون في الطابق الأسفل والأعلى. خرج الحارس
الليلي من حجرة في الطابق الأسفل والسيجارة في فمه. يبدو عليه أنه
يشرب مع الجماعة الساهرة في تلك الحجرة. سألنا:

- هل الأمور بخير؟

قال حميد:

- يلعن دين الحياة والذي يحبها.

صعدنا الدرج وتركناه واقفاً يتأملنا. دخلنا غرفتنا الكبيرة، التي جعل
منها صاحب الفندق ثلاث غرف صغيرة بواسطة حاجزين خشبيين. كانوا
يسهرون في غرفتي. حميد الزيلاشي وبوشتا يسهران، أحياناً، في غرفتي
حتى في غيبتني. كانت الغرفة الوحيدة في الفندق التي لها نافذة تطل على
درب بنعبو. قالت بوشتا لصديقتة:

- فوزية، اهبطي إلى المطبخ وسخني بعض الماء في الغلاية.

تنبه حميد إلى تمزق سروالي عند الركبة وقال:

- آجي معاي إلى الغرفة الأخرى.

دخلنا غرفته وفتح حقيبته. أخرج سروالاً من الصوف ومدّه لي قائلاً:

- انتظر حتى تأتي فوزية بالماء الساخن لتنظف لك جروحك.
طلبت كأس كونياك. جاءت فوزية حاملة المغلاة. قالت نعيمة:
- ها هو الكونياك.

طلبت مني فوزية أن أخلع ثيابي. ترددت. قالت:
- هل أنت حشمان؟

خلعت كبوطي وسروالي أمامهما وبقيت في الكلسون والقميص.
مرفقي الأيسر منسلخ وملطخ بالدم. تركت لهما نفسي وتعاونتا على
تنظيف جروحي بالماء الساخن والكونياك.

كان حميد يفتح زجاجة كونياك أخرى عندما سمعنا دقات قوية على
الباب. أردت أن أنهض لأفتح الباب لكن حميد أمسكني قائلاً:

- أجلس مكانك. لا بد أن يكون قواد هو الذي يدق بهذا الشكل.

ترك الزجاجة من يده وقام. دقات أخرى قوية على الباب. قال حميد:
- من يدق؟

قال صوت بخشونة:

- افتح الباب.

شحب وجها نعيمة وفوزية. قالت نعيمة:

- البوليس. لا يمكن أن يدق الباب هكذا إلا البوليس.

قال لي بوشتا:

- خبي الزجاجة في مكان ما.

كنت جالساً على المطربة. بوشتا وفوزية ونعيمة كانوا جالسين على
الفراش. أبقيت الزجاجة في يدي. لقد اضطربت. نهضت وأطلت من

النافذة. رأيت شرطيين باللباس الرسمي واقفين قدام الباب. فتح حميد الباب ودخل شرطيان سريان. قال الأول:

- لماذا لا تفتح بسرعة؟ تكلموا.

طلب مني الزجاجة وأعطيتها له. فحصها قائلاً:

- تشربون كونياك تري إذن. أوراقك.

- لا أوراق لي.

التفت إلى بوشتا:

- وأنت.

أخرج بوشتا ورقة التعريف الشخصي ومدها له. تأملها ووضعها في جيبه. التفت نحو الفتاتين وقال لهما:

- تقحبان في هذه السن الباكرة. البسا جلابيكما بسرعة.

قيدني الشرطي الثاني مع الزيلاشي. في الطابق الأسفل وجدنا هناك ثلاثة شبان وفتاتين يحرسهم شرطي سري. اثنان مقيدان مع بعضهما. أمسك الشرطي يد بوشتا وقيدها مع يد الشاب الذي كان ينتظر شريكه في القيد. نحن الستة سرنا إلى الأمام والفتيات خلفنا غير مقيدات سلكننا الطريق التي تقود إلى القصبية. صاح شرطي في شابين يتهامسان وراءنا:

- كفى من الكلام.

في ساحة القصبية كانت هناك سيارتا جيب. ركبنا نحن في سيارة وركبت النساء في الأخرى. ركب معنا ثلاثة شرطيين وركب الاثنان الآخران في الثانية. فكرت: إننا صيد ثمين لهم هذه الليلة. كنا متزاحمين في السيارة.

في سوق الزراع اتجهت بنا سيارتنا نحو القسم الجنائي واتجهت السيارة الأخرى نحو السوق البراني. لا شك سيذهبون بهن إلى مخفر

السوق الداخلي.

أدخلونا إلى مكتب وفتشونا الواحد تلو الآخر. خلعوا لنا الأحزمة وسيور الأحذية والدراهم وتركوا لنا السجائر والوقيد. وجدوا عند أحد الثلاثة الذين قبضوهم معنا مقشطاً صغيراً. قال له الشرطي الذي فتشه:

- وهذا، ماذا تفعل به؟ تكلم. سنرى في ما بعد.

بعد أن سجلوا أسماءنا، قادننا، أنا والزبيلاشي، شرطي في ممر صغير والمفتاح في يده. توقفنا عند باب. قبل أن يفتحه لحق بنا شرطي كان قد ركب معنا في السيارة. فتح الشرطي الباب ودفعنا الآخر الذي كان يحرسنا في السيارة إلى داخل حجرة مضاعة. كان هناك ثلاثة مساجين آخرين. استيقظ اثنان منهم وظل الثالث نائماً. فك لنا الشرطي الذي دفعنا القيد ثم انسحب بسرعة وأغلق علينا الباب بعنف. فكرت: إن كل حركة هنا تشكل نوعاً من العقاب. دلكت رسغي الأيسر الذي كان يؤلمني قليلاً. تأملت الباب المصفح وفكرت: إن هذا الباب أكثر صلابة من البابين اللذين أغلقا علي من قبل. الأبواب تزداد صلابة. أخيراً ها أنا في سجن حقيقي. قال لي حميد الذي جلس على الأرض واضعاً ذراعه على ركبتيه:

- اجلس. (ثم اضاف): كل هذا يحدث بسبب الخمر والنساء في بلد مسلم يحكمه النصارى. لسنا مسلمين ولسنا نصارى.

جلست إلى جانبه قبالة الشابين المستيقظين. كانت الأرض باردة كالثلج. على الجدران وفي السقف علامات الرطوبة. في ركن كان هناك مرحاض مسطح وصنبور فوق ثقب المرحاض. فكرت: إن كل ما يحتاج إليه الواحد هنا يشكل عقاباً قاسياً.

بدأت الرائحة الكريهة تغثيني وأنا أتأمل المرحاض. أعطاني حميد سيجارة شقراء ثم أعطى سيجارتين للشابين. كان الثالث الذي لم يستيقظ ينام في وضع مقرفص. سأل حميد أحدهما عن الشاب النائم:

- ماله؟

قال له:

- سكران.

- أحسن له في هذا البرد.

كانا يرتعشان برداً. سأل حميد:

- منذ متى وأنتما هنا؟

قال نفس الذي تكلم من قبل:

- قبضونا هذا المساء. كنا نلعب الورق في قهوة دبو.

كان الشاب الآخر يدخن في صمت خافضاً رأسه. لم يكن يرفع رأسه إلا ليرشف رشفة عميقة من سيجارته ثم يخفض رأسه إلى الأرض. الدخان ينفثه ضعيفاً كالزفير في صباح بارد.

في الصباح بدأنا كلنا نرتعش برداً. نخفي وجوهنا في الركبتين كلما قام أحدهما ليتغوط أو ليبول. الرائحة الكريهة تزداد في المرحاض. أنا وحميد والشاب الثالث الذي وجدناه في الليل نائماً شربنا كثيراً من الماء. دائماً يحدث لي مثل هذا العطش في الصباح حينما أسكر. وقف حميد وأخذ يقوم بحركات رياضية. كان مرحاً. قال لي:

- قم وافعل مثلي إذا أردت أن تتدفأ.

قلت له بتعب:

- ليس الآن.

الأشخاص الآخرون يتطلعون إليه كلما قام بحركة عنيفة. كنت أنظر إليه باستمرار. قال لي:

- انهض. إنك كسول. ليس أحسن من هذه الحركات لطرده البرد

والتعب.

- إن جروج ركبتي ومرفقي تؤلمني. سيسيل منها الدم إذا أنا قمت بنفس هذه الحركات.

بدأ يلهث وحركاته تثقل وتتباطأ. ذهب إلى ثقب المرحاض وبصق. فتح صنوبر الماء وغسل وجهه ويديه ومسح شعر رأسه بقليل من الماء. أقعى وبال وغسل عضوه ويده التي أمسك بها شيئه. شرب قليلاً من الماء وعاد يجلس في مكانه واضعاً يديه فو ركبتيه. كانت قطرات الماء تتساقط من أطراف أصابعه وذقنه. خفض رأسه. تنفسه يهدأ. رفع رأسه إليّ. تبادلنا نظرات باسمة ثم أطلق ضكة عالية. لم أستطع أنا أيضاً أن أكتم ضحكتي. قال:

- أولاد القحاب. اصطادونا كما تصطاد القطط الفئران.

سألته:

- أين تظن أنهم أخذوا الفتيات؟

- إلى كوميساريا السوق الداخلي.

- هل تعتقد أنهم سيحاكموننا بتهمة الفساد.

- لا أعتقد. إننا لم نقم بأية فوضى. لقد وجدونا نسكر فقط مع

قحبتين.

- كم من أيام تظن أننا سنبقى هنا؟

- حتى يوم الاثنين أو الثلاثاء. على الأكثر. اليوم السبت.

بعد لحظة قال:

- أنت محظوظ. (أضاف): وكذلك بوشتا. إنه مجرد خياط.

قلت له بدهشة:

- أنا محظوظ؟

- نعم. ليس لك سوابق ولم تدخل قط السجن. أما أنا فلي سوابق وقد يتهمونني بسرقة جديدة لم ارتكبتها.

- لماذا لم يحبسوا بوشتا معنا هنا؟

- إنها مجرد صدفة. ما أظنهم أخذوه إلى حجرة أخرى عمداً. سيسرحونه هو أيضاً يوم الاثنين أو الثلاثاء.

- بهذه السهولة؟

- ستري. أنا أعرف جيداً كيف يتصرفون.

بعد لحظة سألته:

- ونعيمة وفوزية؟

- هما أيضاً ستخرجان. في أسوأ الأحوال سيرغمونهما على الدخول إلى البورديل إجباراً لكي تخضعا للمراقبة الطبية مرة كل أسبوع. أعتقد أن بوشتا سيتزوج فوزية.

- هل يحبها؟

- لا أدري، لكنه قال إنه يريد أن يعيش معها.

- وأنت؟

- ماذا تقصد؟

- علاقتك مع نعيمة.

دور سبابته على صدغه وقال:

- أنت أحمق. إنها مثل بقية القحاب اللواتي عرفتهن. لم أخلق لأتزوج قحبة.

سمعت خطوات قرب الباب. التفتنا جميعاً صوب الباب. فتحت الكوة الصغيرة. فتح الباب بصخب وبسرعة. فكرت: إنهم يتعمدون مثل هذا

الصخب والسرعة ليخيفونا. هذا الفعل يشكل أيضاً جزءاً من العقاب.

دخل رجلان هرمان: واحد يحمل غلاية كبيرة وقفة فيها أكواب من الصفيح والآخر كيساً أبيض من القماش فيه خبز. حيّانا الرجلان ووقف شرطي خلفهما. تسلّمنا منهما خبزة وكوب شاي أخضر لكل واحد منا. قال لنا الشرطي:

- لكم ربع ساعة لتفرغوا الأكواب.

انسحب الرجلان وأقفل الشرطي الباب. الكوة الصغيرة تركت مفتوحة. كان الشاي والخبز الأسود ساخنين. كنا نأكل صامتين. قال لي حميد:

- اترك نصف خبزتك للمساء. إنهم لا يعطون شيئاً آخر حتى الغد في مثل هذه الساعة.

هزرت له رأسي. بعدما انتهينا من الأكل أعطى حميد سيجارة للآخرين ليدخنوها في ما بينهم. هو وأنا تناوبنا على تدخين سيجارة أخرى. الشابان اللذان قبضوهما في قهوة دبو لم يتركا شيئاً من خبزهما. الشاب الثالث وفرّ أكثر من نصف خبزته. كذلك فعلت أنا وحميد. قمت إلى الصنبور وشربت كثيراً. في الصباح يحل العطش محل شهية الأكل. هذا ما يحدث لي كلما سكرت. ندخن في صمت. الدفاء يشيع في جسمي. ندخن ونحسو بقية الشاي جرعة تلو جرعة. ربما الكوة المفتوحة هي التي فرضت علينا هذا الصمت. فكرت: كيف ستصير حياتنا في المستقبل لو كان محكوماً علينا أن نقضي حياتنا في هذا الوضع وفي هذه الحجرة؟ لا شك في أننا سنظل نمثل أدوار حياتنا حتى نمل ماضيها وحاضرنا. سننتهي إلى صمت أبدي. سنختفي الواحد اثر الآخر. أتعسنا هو الأخير في الاختفاء.

فتح الباب ودخل الرجل الذي حمل لنا الشاي. وقف شرطي الحراسة خلفه. شربنا ثمالة الأكواب بسرعة ووضعناها له في قفته التي حملها معه. كان فيها أكواب أخرى. قال لنا منسحباً:

- الله يعفو عليكم وعلينا.

قال به بعضنا:

- آمين!

أغلق الشرطي الباب والكوّة بصخب. فكرت: لم تعد هذه الحركات العنيفة تثير في أية رهبة. مع الزمن قد لا تثير حتى الالتفات إليها. وكذلك وضعنا هذا.

أخرج حميد قلم رصاص صغير وأخذ يكتب على الحائط. سألته:

- ماذا تكتب؟

- أكتب بيتين للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي.

- ماذا يقول هذا الشاعر؟

- هذا ما يقوله:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي

ولا بد للقيد أن ينكسر

قلت بإعجاب:

- عظيم.

- هل تفهم ما يقوله؟

- كلا، لكنه عظيم. أحس بأنه عظيم. (أضفت): ما معنى الذي يقوله؟

- إرادة الحياة، هذا هو معنى ما يقوله:

- وما معنى إرادة الحياة؟

- إرادة الحياة معناها هو أنه إذا كان هناك شعب مستعبد أو إنسان ما وأراد أن يتحرر فإن الله يستجيب له، والفجر يستجيب والقيد يتهرس بقوة إرادة الإنسان.

- إنني أفهم الآن.

لاحظت أن الرفاق كانوا يتبعون باهتمام ما يقوله حميد. قلت له:

- إنك محظوظ.

قال مندهشاً:

- أنا محظوظ؟

- نعم، أنت محظوظ.

- لماذا؟

- لأنك تعرف كيف تقرأ وتكتب.

- أنت أيضاً يمكن لك أن تتعلم إذا شئت.

كتب شيئاً آخر على الحائط وسألني، واضعاً رأس قلم الرصاص القصير على الحرف الأول:

- ما هذا؟

- لا أدري.

- هذا ألف.

ثم أشار إلى الحرف الثاني:

- وهذا؟

- لا أدري.

- هذا حرف باء. وهذا؟

- التاء.

سألني بدهشة:

- كيف عرفت؟

- لأنني سمعت الناس دائماً يقولون: ألف، باء، تاء....

- عندك الحق.

رددت معه الحروف الثلاثة وقال:

- من هذه الحروف الثلاثة يمكن لنا أن نستخرج بعض الكلمات مثل:

أب، باب، بات، إلخ...

جلس وقال:

- ذات يوم سأعلمك القراءة والكتابة. عندك استعداد لكي تتعلم.

طلبت منه أن يعيد عليّ البيتين للشاعر التونسي عدة مرات حتى

حفظتهما.

في المساء، أخذ الشاب الثالث يتمشى في الحجرة متوتراً. كنا جالسين

صامتين. أمسك كسرة خبزه التي وفرها في الصباح وفتتها ثم رماها في

ثقب المرحاض. نظرت إلى حميد. قال لي بهمس:

- ليس شغلنا. ليفعل بخبزه وبنفسه ما يشاء.

كان الشابان يتأملان الشاب العصبي بغضب. فكرت: ستحدث مشادة إذا

أتى هذا الشاب بحماقة أخرى.

قال له أحد الشابين:

- لماذا رميت الخبز في المرحاض؟

أجاب بحدة:

- أنا حر في أن أفعل بخبزي ما أشاء.

- لكنك رميت نعمة الله.

- أنا حر. بيني وبين الله.

- إنك خراء.

- أنت هو الخراء.

خَطَى خطوتين وراح يضرب يديه ورأسه مع الحائط حتى سقط مغشياً عليه والدم يسيل من جبهته ويديه. قام حميد ودق على الباب بعنف. فتحت الكوة وسأل شرطي الحراسة:

- ماذا وقع؟

- هناك واحد ضرب نفسه مع الحائط. الدم يسيل منه.

عاد ليجلس وقال:

- هذا فقط ما يجب علينا أن نفعله.

قال نفس الشاب الذي كان قد عاب عليه ما فعله بخبزه:

- هذا هو عقاب الله في حينه.

فتح الباب ودخل شرطيان سريان وشرطي الحراسة باللباس الرسمي.

سأل الشرطي السري الأول:

- ماذا وقع هنا؟

قال له حميد:

- فتت كسرة خبزه ورماها في المرحاض ثم طفق يضرب رأسه ويديه

مع الحائط.

سأل الشرطي الثاني:

- وماذا حدث قبل ذلك؟

قال له حميد:

- لا شيء.

- ألم يتشاجر مع أحد؟

نظر حميد نحونا ثم التفت إليهم:

- أبداً. أسألوه عندما يفيق.

اقترب الشرطي السير الأول وتأمل لطخات الدم على الحائط. قال الثاني:

- سنرى في ما بعد إن لم يكن قد تخاصم مع أحدكم قبل أن يضرب نفسه.

كان هامداً والدم ينزف من جروحه. خرجوا وأقفل الباب. تركت الكوة مفتوحة. بعد حوالي ربع ساعة دخل الشرطة الثلاثة ورجلا إسعاف وحملاه في نقالة. كان ما زال مغمى عليه. تخلفت في مكانه بقع دم. أغلق الباب وتركت الكوة مفتوحة. قلت لهم:

- لا بد أنه مريض.

قال حميد:

- ليفعل بنفسه ما يشاء. (أضاف): يبدو أنه مدمن على الخمر أو الكيف.

قال الشاب الأول:

- إنه سخط الله أو سخط الوالدين.

قال الثاني:

- كل واحد يعاقبه الله على أفعاله.

كانت سجائرنا قد نفذت. الأعباب التي رميناها كانت قصيرة جداً. التقتت واحداً ودخته.

صباح الاثنين استيقظنا منهكين. كان الشابان مقرفصين. لم يقم حميد بحركاته الرياضية. كان شاحباً، لكنه أقلنا تعباً. ربما يكون متعوداً على الحبس. شعرت برغبة في القيء. إذا تغوط أحد الرفاق فإني حتماً سأقيء. حالتي تذكرني بظهيرة ذلك اليوم في مرفأ الصيادين.

فتح الباب ونادى شرطي الحراسة على اسمي. حين وقفت شعرت بدوخة وتعب في ركبتي. ودعتهم رغم أنني لم أكن واثقاً من تسريحي. تبعت الشرطي إلى الطابق الأعلى وأنا أجر حذائي بلا سيرين. كان مجرد خروجي من تلك الحجرة يعني لي نصف حرיתי. أدخلني الشرطي إلى غرفة تنتصب وسطها آلة تصوير كبيرة. انسحب الشرطي وأمرني المصور أن أجلس على المقعد المقابل لآلة التصوير. الغرفة دافئة. الحجرة التي خرجت منها تشبه ثلاجة. اقترب مني وسوى وضعي أمام الآلة. وقف وراءها وأمرني أن أنظر إلى عدستها ولا أتحرك. أخذ لي صورتين أخريين جانبيتين. لا بد أن يجعلوا لي ملفاً عندهم هنا.

سألني عن اسمي ثم أراني كيف أضع إصبعاً في المدادية وكيف أطبع بصماتي في ورقة بيضاء مقواة. دخل شرطي سري وتكلم مع المصور المغربي. تارة يتكلمان بالفرنسية وتارة بالإسبانية. حين انتهى ألقى نظرة على ورقة مكتوبة وسألني إن كنت أعرف كيف أوقع اسمي. أجبته بالنفي. قال الشرطي السري بالإسبانية:

- كيف تطلب منه ذلك! إنه مثل معظم المغاربة.

قال له المصور بالإسبانية:

- هذا طبيعي.

أمرني المصور أن أطبع إبهامي في المدادية وأوقع في أسفل الورقة المكتوبة. لم أجرؤ أن أسأله عما هو مكتوب فيها، لكنني قلت له بأنني لم أفعل شيئاً خطراً. قال لي:

- هذا ليس شغلي. أهبط الآن عند الشرطي الذي صحبك إلى هنا.

سألني الشرطي السري بالإسبانية عن العمل الذي أمارسه. قلت له بالإسبانية:

- نادا (لا شيء).

قال:

- وبماذا تعيش إذا كنت لا تمارس أي عمل؟

- هكذا. (أضفت): إنني أمارس أي عمل أعثر عليه.

- اذهب الآن.

خرجت أجر حذائي. في الطابق الأسفل لم أجد شرطي الحراسة. ظللت واقفاً في الممر والباب مفتوح أمامي. أرى الناس يمرون في الخارج. دخل رجلان باللباس المدني وتخطيانني. لا بد أنهما شرطيان سريان.

خرج شرطي الحراسة من مكتب وسألني:

- هل انتهى معك المصور؟

- نعم.

قادني إلى نفس المكتب الذي خرج منه. كان هناك اثنان آخران.

جعلوني أوقع بإبهامي ورقة أخرى مكتوبة. أعطيت اسمي لأحدهما وسلم لي نقودي وحزامي وسيري حذائي. فكرت: ماذا كتبوا أيضاً عني في هذه الورقة؟ في استطاعتهم أن يكتبوا عني ما يشاؤون ما دمت لا أستطيع أن أقرأ ما هو مكتوب في تلك الورقة. لا أجرؤ أن أطلب منهم

أن يأتوا لي بمن يقرأها لي قبل أن أوقعها. قد يعيدونني إلى السجن إذا أنا طلبت منهم ذلك. قال لي شرطي الحراسة:

- انصرف الآن.

خرجت من المكتب ناسياً تعبي وغثياني. عند الباب اصطدمت بشخص. اعتذرت له. دفعني فاصطدمت مع الجدار.

- شف قدامك يا هاد الحمار.

تخطاني وانحنيت لأعيد إلى قدمي الفردة التي افلنت. فكرت: لا يمكن أن يسب هكذا، في هذا المكان، سوى الشرطة.

في الخارج، عقدت سيري حذائي وحزامي. كان يوماً بارداً ومشمساً. تنفست بعمق ومشيت.

في السوق الكبير دخلت مطعماً لبيع البيصر وأنا أفكر في النقود التي تركها لي القندوسي عند صاحب قهوة الرقاصة.

_ 12 _

رنّ جرس المنبه. مددت يدي في الظلام وأوقفتة. نهضت وأشعلت الضوء. كانت الخامسة صباحاً. النوم ما زال لذيذاً في عيني. بعد ساعة ستدخل الباخرة. نظرت إلى نعيمة النائمة بلا هموم. أكره العيش مع امرأة لا تشغل نفسها بشيء. لا عمل لها سوى أن تفتح لي أو لغيري فخذيتها. بوشتا تزوج فوزية. ربما تظن أنني أيضاً سأتزوجها. كلهن هكذا: لا يكاد الواحد يبدأ العيش مع إحداهن حتى توقعه في فخ انتفاخ البطن. إنهم لا يتخذن أي احتياطات عمداً. لكن ليس لدي ما أخسر. إذا وقعت في فخها فسأهجر هذه المدينة إلى مدينة أخرى وأتركها تسقط في فخها. لبست ثيابي وحملت قفة السلع. أطفئ الضوء. خرجت بهدوء.

في الطابق الأسفل غسلت وجهي بماء بارد كالثلج. أيقظت الحارس بحذر. ضرب بيده في الهواء كعادته عندما يكون نائماً ويوقظه أحد، لأنه يشعر أنه دائماً مهاجم. نظر إليّ جاحظ العينين دون أن يتكلم.

- عبد السلام. أنا شكري. سأخرج. قم لتفضل الباب.

أرسل شهيقاً ثم نزل من فراشه متعباً. تقدمني وفتح الباب الخارجي. فاحت منه رائحة خمر. قال لي وأنا أخرج:

- الله يعاونك.

حييته ومضيت في الدرب الهادئ. صباح بنفسجي. لقد ابتلع الليل البؤس. المحظوظون لا يستيقظون في هذه الساعة للعمل. إنهم الآن كالنفايات في الأمعاء. توقفت في عقبة باب العصا وألقيت نظرة على البحر. إنه هائج قليلاً.

في مرفأ الميناء رأيت بوصوف واقفاً قدام كشك يتناول فنجاناً من البيضرة الساخنة. كان هناك عمال يفطرون وآخرون يدخنون الكيف والسجائر. حييته وطلبت فنجاناً لي. اتفقت معه على أن يعمل معي مقابل ثلاثة آلاف فرنك. قال:

- سمعت البارحة أن العنابر ستكون غاصة باليهود المهاجرين إلى فلسطين.

- الجنود الفرنسيون والداكاريون الذاهبون إلى الجزائر يهيموني أكثر. إنهم لا يساومون كثيراً في الأثمان. اليهود معظمهم تجار. حتى الذين ليسوا تجاراً يفهمون في التجارة.

- لكنهم يغادرون المغرب إلى الأبد ولا بد أن يشتروا بعض الهدايا من آخر مدينة مغربية يقلعون منها.
- سنرى.

مشينا إلى المرفأ ونزلنا إلى الزورق. أخذ يجذف ببطء. تذكرت وهران وذلك الشيخ الذي كان يصرخ في بعتاب: "هيا! انتبه إلى اليمين أيها الريفي الكسول. النوم ما زال في عينيك. سأقول للمسيو سيجوندي أن يأخذك إلى زوجته لتساعدنا في قشر البطاطا. اضرب البغليين جيداً. إنك لا تصلح إلا لقشر البطاطا وغسل الصحون...". في مثل هذه الساعة كنا نخرج إلى حقل الدوالي لنعمل. كان الشيخ يثرثر: إن لم يشتمني فإنه يشتم سكة المحراث أو المقوم الذي تنزلق عليه قبضتاه أحياناً من شدة العرق، وقبضتاي هما الأخريان تشدان بقوة على زمام البغليين حتى أحس كأن في راحتي أشواكاً تنغرز. لولا فعلي مع ذلك الغلام الجميل في الحقل لكنت الآن ما زلت في وهران. كنت هناك أتذكر وجه أمي في وجه خالتي. اليوم أدرك جيداً لماذا كانت تعاملني بلطف. لقد كانت بلا أطفال.

قال بوصوف:

- انظر، الباخرة تدخل الميناء.

توقف عن التجذيف. انتشل المجذاف ووضع عروته في القائم الآخر.
أخذنا نجذف معاً. قال:

- الباخرة غاصة بالجنود.

عندما اقتربنا من الباخرة صاح جندي بالفرنسية:

- إيه، ماذا عندكما للبيع؟

أشرت للجنود أن ينتظروا. أخرج بوصوف لفة الحبل وهيأه في يده
لرميه. صحت فيهم:

- أمسكوا الحبل.

امتدت بعض الأيدي لتلقف رأس الحبل المثقل بعدة عقد. رمى بوصوف
رأس الحبل بقوة. أمسكه جندي زنجي. قلت للسينيغالي بالفرنسية:

- اربط الحبل جيداً.

صاح بعض الجنود:

- هيا، اطلع.

بدأت أتسلق الحبل بخفة. كانت بعض الأصوات تصيح:

- ألي، كوراج، برافو!

- تري بيان!

ساعدني على القفز إلى سطح الباخرة جندي داكاري. كان بوصوف
قد ربط القفة في ذيل الحبل عندما صعدت. بدأت أسحب القفة إلى
الباخرة. سألتني جندي سينيغالي:

- ماذا عندك للبيع أيها الرفيق؟

قلت له دون أن ألتفت إليه:

- ساعات سويسرية، شالات، مناديل يابانية وقداحات. ساعدني جندي فرنسي على إنزال القضة وقال:

- هيا: أرنا ما عندك.

أخرجت علبة الساعات وتركت الأشياء الأخرى في القضة. قلت لهم:

- هذه هي الساعات.

- كم هذه؟

- خمسة آلاف فرنك.

- أليست زائفة؟

- لا أبيع ساعات زائفة.

- ثلاثة آلاف.

- أربعة آلاف.

- لا: أعطيك ثلاثة؟.

- خذها، إنها لك.

فكرت: يكفي أن يشتري أحدهم ليصاب الآخرون بهوس الشراء. كانت الساعات تطير من يدي الواحدة تلو الأخرى وجيوبي تمتلئ بالأوراق المالية. عاد إلي جندي نادم وقال لي:

- ردّ لي نقودي وهاك ساعتك.

فكرت: إذا انهزمت أمامه وأعدت له نقوده فيصاب بهوس الندم كل الذين اشتروا من عندي. قلت له:

- لماذا؟

- قالوا لي بأن ساعتك هذه زائفة.
- اسمع، إن الذي قال لك هذا لا يملك ثمناً لشراء مثل ساعتك الجميلة هذه.
- أئن ترد لي نقودي؟
- كن رجلاً. إنك اشتريها باختيارك.
- تصوبت عشرات العيون تجاهي بريبة. نحنح بعضهم. قال الجندي الفرنسي الأشقر:
- طيب، سأحتفظ بها.
- انسحبت إلى عنابر اليهود. رائحة قيء ورطوبة. قالت امرأة يهودية بصوت متعب:
- ماذا تباع أيها الولد؟
- شالات ومناديل يابانية.
- تجمعت حولي يهوديات أخريات. قالت يهودية شابة:
- أرنا إذن ما في قفتك.
- صاحت أخرى بفرح إلى جانب أمها:
- ماما، كم هو جميل لون هذا الشال!
- سألنتني أمها عن ثمنه.
- ألف فرنك.
- سبعمئة.
- إذا لم أسرع في البيع سأخسر كل شيء. قال شيخ ذو لحية رمادية مدببة، بطنه بارز:

- إن نسيج هذه الشالات رخيص. يكفي أن تغسل مرة واحدة لتفقد لونها.

التفتت إليه زوجته:

- اسكت أنت. هذه أشياء تخص النساء.

أضاف الشيخ:

- إنني أعرف جيداً هذه البضاعة التي يبيعها الهنود هنا في طنجة بالجملة.

فكرت: البيع والشراء دائماً صعب مع الشيوخ. إنهم يزعمون، في غرور، أنهم يعرفون كل شيء.

أخذت النساء اليهوديات يتجمعن حولي ويشترين مني دون أن يابهن لما يقوله ذلك الشيخ. سمعته يقول لهن: "إنكن حمقاوات. أنت تشتريت أرخص سلعة رأيتها..."

الألوان تطير من يدي وحموضة الروائح تملأ داخلي بالغثيان سمعت ارتطاماً قوياً. الباخرة ترسو. قبضت ثمن آخر شال وبدأت أنسحب وسط صياحات النساء: "عد إلينا بمزيد من البضاعة".

عندما صعدت إلى السطح صاح جندي سينيغالي في ظهري من بعيد:

- ايه أنت! انتظرنى هناك!

لا بد أنه يريد أن يرد لي الساعة التي اشتراها مني. رأيت حول رامي حلقة جنود. الملعون، الذي لا يصحو قط من السكر، يبيع لهم الساعات بنصف الثمن الذي بعث لهم به. هذه عادته. قلت له:

- أنت دائماً قواد.

قال:

- مع مع أنت تتكلم؟

- مع استك.

- عندما نتقابل في المدينة سأريك من أكون.

- سأبصق لك في عين مؤخرتك.

اقترب بوصوف بسرعة من الباخرة. ألقى القفة إلى الزورق. انزلت في الحبل. راحتاي تنسلخان. انقطع الحبل وهويت في وسط الزورق. صاح بوصوف:

- تفو على هذا البيع والشراء. لقد انشق زورقي.

- الجندي السينيغالي، ابن القحبة، هو الذي قطع الحبل.

- تفو على خدمة الزب هذه!

- جذف بسرعة. سيقذفوننا بأي شيء. ليست هذه أول مرة. إني أعرف هؤلاء الجنود، أولاد الزنا.

صاح بوصوف:

- انتبه!

تفاديننا زجاجة بيرة فارغة. صاح بوصوف:

- أمسك أحد الألواح لنحتمي به.

أمسكت لوحاً. لمعت زنجياً يشتمنا بصوت عال ويخنق أحدنا في الفراغ. إنه بلا شك يخنقني. تلقيت زجاجتين متتابعتين. صرخت:

- آي! يدي، يلعن دينهم!

رميت اللوح. طفا بعيداً. لحست جرحي. مضى وقت طويل لم أر فيه دمي يسيل بهذا الألم الحلو. طعمه ملح وسكر في فمي. بدأت أحس

بوخزات مؤلمة في مؤخرتي المتتملة. تخلى بوصوف عن التجذيف. كنا قد ابتعدنا عن الباخرة. وقف. قبض على أسفل بطنه وراح يصيح:

- خذوا، شدوا لي في هذا!

- كفى. أي جدوى في ما تفعله الآن. إن التيار ضدنا.

أخذنا نجذف معاً. بعد لحظة قال:

- لكن ماذا فعلت لهم؟

- لا شيء. إن رامي هو سبب كل ما حدث.

- ماذا فعل؟

- إنه يخفض دائماً أثمان الساعات. سأبول له في إسته عندما ألقاه في المدينة.

- ألم تتحدث معهم عن الحرب في المغرب والجزائر؟

- أبداً. قلت لك إن رامي هو السبب.

- ومع اليهود!

- قلت لك لم أتكلم عن السياسة مع النصارى أو مع اليهود. هل تريدني أن أقول للفرنسيين والسينيغاليين ألا يذهبوا إلى الجزائر واليهود ألا يهاجروا إلى فلسطين؟

التيار يجرفنا والريح تقوى. انكسر مجداف بوصوف. بقي في يده نصفه. قال:

- تفوا! كل هذا من أجل آلافك الثلاثة.

- ليست لومتي.

أخذ الماء ينصب في الزورق مع كل موجة قوية. قلت:

- اسمع، تكلف أنت بإفراغ الماء. أنا سأضع المجذاف في المؤخرة لأوجه الزورق في الاتجاه المناسب.

- سيجرفنا التيار إلى صخور المنار إذا لم نعرف كيف نسير معه.

- سنتدبر أمرنا عندما نقترّب من الشاطئ.

- إن حياتي مرتبطة بهذا الزورق، وهو ليس زورقي.

- لن يجرفنا التيار أبعد من فيلا هارز.

- أنت سترميني في تيارات هذا البحر. إنك لا تعرف شيئاً عن هذا.

(أضاف): لكن قل لي، كم ستعوض إذا انكسر زورقي أو ضاع؟

- سنحاول أن نصل بسلام.

- أريد أن أعرف مسبقاً كم سأقبض.

- سأعطيك ضعف المبلغ الذي اتفقنا عليه إذا حدث فيه أي عطب.

- ستة آلاف.

- نعم.

- من أجل ستة آلاف...

ارتج الزورق بعنف. سقط إلى الخلف. قبضت على المجذاف وهويت

على كتفه اليمنى ثم على الكتف الأخرى. صرخ:

- جبان! يلعن دينك.

- إذا لم تسكت سأقذفك إلى الماء.

- يلعن دينك. سترى في ما بعد عندما نصل.

قبضت بيدي على أسفل بطني وقلت له:

- سترضع لي هذا.

كان منهزماً في المقدمة فوق المقعد. فككت حزامي لأربط به
المجذاف في مؤخرة الزورق. غافلني وضربني بنصف المجذاف الذي كان
قدامه. تباديت الضربة وسقطت الهراوة من يده. تخانقنا. صعدت له ضربة
ركبة إلى أسفل بطنه، ثم دفعته إلى الوراء. أمسكت الهراوة لأهوي بها
عليه. أخذ يصرخ برعب:

- لا، أرجوك لا...

شحب لونه وجحظت عيناه من الرعب. قلت له:

- إذا لم تكف سأقذفك إلى الماء.

كان المجذاف الآخر يطفو بعيداً عنا. أمسكت الهراوة بيدي اليمنى
وبيدي الأخرى أخذت أفرغ الماء بعلبة من الصفيح. كان الزورق يدور
ويدور في مكانه أحياناً. بعد لحظة رميت له العلبة وأمرته:

- إنها الآن نوبتك.

أمسك العلبة وطفق يفرغ الماء بهدوء. فكرت في نعيمة: ربما ما
زالت تنام. إنها الآن تستريح وتحلم إذا لم تكن قد استيقظت. ما هو بيننا
ليس هو الحب. هذا أكيد. العادة هي التي آلفتنا. أشك في أنني أحب لا
مبالاتها. عندما ستصحوا ستغتسل وتنزل إلى الطابق الأسفل في ثياب النوم
لتثرثر مع الحارس أو مع صاحب المحل الكسيح. إذا أغراها أحد المقيمين
في الفندق كيف تنام معه فلا أظن أنها سترفض. قالت لي ذات مرة: "أنا
لا أفهم الحب إلا في الزواج". قلت لها: "وأنا أخاف أن يموت حبي في
الزواج". إن ما يجعلنا نستمر معاً هو أن كلانا ليس ملكاً للآخر كلياً.
هكذا يظل الشوق بيننا.

كنا نقترّب من شاطئ فيلا هارز. الأمواج تعلو وتنكسر. الماء عكر.
كنت قد سمعت من الصيادين أن كلب البحر لا يقترب من المياه العكرة.

تهيأنا لنقفز. قفزت أنا الأول. سبحت تحت الماء حتى كدت أختنق. رفعت رأسي فوق الماء والتفت ورائي. كان بوصوف يتبعني عن قرب. الأمواج ترفعني عالياً ثم أنحدر معها كأني أسقط في هاوية. فكرت: إنني الآن أحمل موتي فوق كتفي. عندما زرت صديقي مانولو في المستشفى الإسباني سمعته يقول في ألم: "خلصني من هذا العذاب يا رب...". كان مصاباً بمرض قاتل في رئتيه فأراد أن ينتحر، لكنه لم يستطع لأن موته كان محروساً بالراهبات. ابتلعت قليلاً من الماء. يجب ألا أفكر في شيء حتى لا أغرق. ظللت لحظة أسبح كأني في بئر. استعدت تنفسي. سبرت الغور. لمست قدمي الرمل. وقفت. دفعتني موجة قوية: ابتلعت الماء. خرجت إلى الشاطئ. صحت في بوصوف:

- قف على قدميك. إن القد موجود هناك.

انبطحت على الرمل ليهدأ لهائي. لم أدر إذا كان قد سمعني أم لا. ظل يسبح حتى حافة الشاطئ. الزورق ينقذف بعيداً عنا.

عندما خرج ألقى نظرة على زورقه ثم نظر إليّ بغضب. لم يكن متعباً مثلي. نهضت وفكرت: إنه ينظر إليّ الآن كأني خروفه الذي سيشويه. طز في الذي خراه. إذا خشيته فحتماً سأنهزم. سيسلبني كل شيء ويركب على ظهري إذا غلبني. سيتركني هنا عارياً ويذهب. اقترب مني. تراجعت إلى الوراء. قال:

- تعال لنر ما سيحدث للزورق.

مشى أمامي وأنا خلفه على بعد خطوات منه. كان الزورق ينقذف فوق الرمل. أخذنا نسحبه إلى الرمل بصعوبة، لم أفقد حذري منه. إنه أقوى. قد يغافلني بضربة تطرحني تحت قدميه. عندما استقر الزورق فوق الرمال قال:

- لا بد أن شقوقاً قد حدثت فيه.

- أين هي؟ إنني لا أرى أية شقوق.

صرخ بغضب:

- أنا الذي أعرف زورقي.

- وأنا لست أعور. اسمع، قل لي ماذا تريد الآن؟

- هذا يساوي عشرة آلاف فرنك.

- لماذا عشرة آلاف؟

- أتعطيها أم لا؟

- سأعطيك ستة آلاف.

- إذن خذ.

تلقيت لكمة على جانب وجهي الأيسر. دارت النجوم في عيني. ابتعدت خطوات إلى الوراء لأسترد توازني. هاجمني مثل ثور. إذا تركته يقبض علي فسيهرس لي عظامي. ليتها كانت معي شفرة حلاقة. كنت سأفعل له مثلما فعلت لكوميرو. راوغته. خبط في الفراغ. بدأ المطر يهطل بغزارة. قال:

- ولد القحبة! أتحسب نفسك أنك هنا ستعاملني كما فعلت معي في الزورق بالمجذاف. هنا ستخراً كل ما أكلته.

ظللت أراوغه بصمت وهو يطلب مني بحركات يديه وجسمه كله وصوته الصارخ أن أقرب منه إن كنت شجاعاً. لن أستهلك طاقتي. سأتركه يهجم. أخذ يضحك ويدها تلحان في الالتحام بي. قال:

- إنك جبان. من سينقذك مني الآن؟

بقيت صامتاً حذراً من أن يغافلني بهجوم يقبضني فيه. ارتمتي بسرعة على أسفل بطني. ضبطته من عنقه بيدي معاً. صعدت له بركبتي اليمنى ضربة تقليدية إلى وجهه. رفع وجهه. لم يندم. نطحته. أفلت. سدت له لكمتين على أنفه ثم واحدة على عينه اليسرى. الأحمر ينزف من أنفه

وأخمص قدمه اليمنى. تقوس صارخاً ثم سقط قابضاً على قدمه. رأيت شظية زجاجة مغروسة في الرمل كخرشوفة شوكية. كان جرحه عميقاً حتى العظام. بان الشحم النازف، اقشعر جسدي. ثم لم أدر لماذا تبدل شعوري فراقني منظر الدم الذي ينزف ويمتصه الرمل والأمطار تغزر. بدا لي المطر مثل عروق تنزف. تذكرت منظر الكباش في الريف حينما ذبحوه ووضعوا طاساً تحت حنجرته الفائرة حتى امتلأ ثم شربه أمة المريضة. عدت ستة آلاف فرنك مبلة. نفضته ورمىها له قدامه... استدرت ومشيت. سمعته يقول:

- عد يا ابن القحبة. سأبصق لك في مؤخرتك إذا أنت عدت.

فكرت أن أعود وأخنقه. المطر الغزير يهدئ أعصابي وأنا ماض وهو يسب.

عندما اقتربت من الطريق رأيت حافلة المنار آتية. رفعت يدي. توقفت. صعدت ودفعت للمحصل ورقة ألف فرنك مبلة. قال:

- مالك؟ هل حدث لك شيء؟

- لا بأس.

التفت إليّ كل ركاب الحافلة البدويين. كانوا سبعة أو ثمانية. نظرت من خلال النافذة إلى الشاطئ. رأيت يتجه نحو الزورق وهو يعرج.

نزلت من الحافلة في السوق الكبير. أثار منظري المبلل انتباه كثيرين من المارة. قالت امرأة لزميلتها تحت مظلة صغيرة مزوقة وهما ماشيتان ورائي:

- مسكين هذا الشاب!

قالت رفيقتها:

- لا بد أن تكون قد حدثت له مصيبة.

وجدت في قاعة الفندق الحارس يتبادل بعض النكات مع المرأة المنظفة. كانت تغسل الأرض. تركت الجفاف من يدها وسألاني معاً عما حدث لي. قلت لهما بأني تبللت بالمطر وصعدت إلى غرفتي. وجدت باب الغرفة مفتوحاً. الأشياء لم تعد في مكانها. القحبة بنت القحبة لعبت دورها معي. أخذت معها كل ما هو مهم: راديو ترانزيستور، المنبه، خمس ساعات يد وديزينة من القداحات.

هبطت إلى القاعة وسألت الحارس:

- ألم تر نعيمة حين خرجت؟

- كلا. هل حدث شيء؟

- لا شيء. أعتقد أنها ذهبت نهائياً دون أن تنتظرني لتقول لي وداعاً.

- ألم يحدث شيء.

هزرت له رأسي بالنفي. ثم عدت إلى غرفتي لأغير ملابسني وأبيس أوراقى المالية. لقد تركت لي ثيابي. ربما ستبدأ حياتها مع عشيق آخر في مكان ما كما كانت مع حميد الزيلاشي وقبل أن تكون معه. شيء قدر، لكن لا بد منه مع أمثالها.

_ 13 _

في ذلك المساء، جئت إلى مقهى "سي موح" حاملاً معي مجلة مصرية مختصة في نشر أخبار الممثلين العرب وصورهم. كنت أشتري هذا النوع من المجلات لكي أتفرج على صور الممثلات بلباس الرقص الشرقي. أحياناً كن أستمعني على بعض صور الراقصات المثيرة للجنس. كان عبد المالك - أخو حميد - هو الذي يقرأ لي هذه المجلات حين يروق له مزاجه. أحياناً كنت أدفع ثمن فطوره أو غدائه. كان قد هجر دراسته في تطوان وجاء إلى طنجة ليتصلعك بعيداً عن أهله في أصيلة. أفضل رواد المقهى يكتب اسمه بصعوبة. كنا نعتبره أهم شخص يتردد على المقهى. يقرأ لنا الصحف والمجلات الشرقية العربية بصوت قوي وواضح. حين يقرأ موضوعاً سياسياً هاماً عن إحدى الدول العربية يسكت صاحب المقهى الراديو ويصغي كل الرواد إلى ما يقرأه ويشرحه باهتمام كبير. أحياناً كان ينتصب واقفاً ويترك الصحيفة أو المجلة من يده ويتحول شرحه إلى خطبة سياسية، يستعرض فيها ثقافته وذكائه في تحليل الأحداث ويستشهد كثيراً بآيات من القرآن وأحاديث الرسول وأقوال الصحابة (كان قد حفظ القرآن عن ظهر قلب في صباه). حين يطلب منه أحدهم شرحاً أكثر وضوحاً لإحدى الأفكار يجد الفرصة ليتعالى علينا، نحن الأميين، الجهلاء، فيزداد شرحه غموضاً. كان دائماً على صواب في نظرنا. لم يكن بعض الرواد يفرقون دائماً بين قوله وقول الله. كثيراً ما يقول أحدهم: صدق الله العظيم فيصحح له عبد المالك: "أستغفر الله العظيم، هذا ليس قول الله، إنما هو قولي..." أثناء حديثه غالباً ما كان أحدهم يقاطع كلامه ماداً له "سبسيا" من الكيف. يتوقف لحظة عن الكلام ليذخن واقفاً ويرشف جرعة أو جرعتين من الشاي الأخضر ثم يستأنف

خطبته المعجزة. عندما ينتهي يتلقى تهائن الرواد ويكون صاحب المقهى قد هياً له كأساً من الشاي المنع وشطيرة من الخبز مزبدة. في بعض الليالي أدعوه للعشاء معي في أحد مطاعم السوق الداخلي ثم ندخل إحدى حاناته لنسكر أو نذهب مباشرة إلى الماخور لنبيت مع بغيين. (كانت لديه أيضاً نزعة غلامية مكبوتة إذ كثيراً ما حدثني عن جمال الذكورة الذي يفوق جمال الأنوثة). كنت فخوراً أن يصاحبني شخص مثقف مثله. كان يجيبني عن كل الأسئلة (لم أكن أدري إن كان على صواب أو على خطأ، فالله أعلم). كل ما أذكره هو أنني لم أكن أفهم منه إلا القليل.

كان جالساً معي في ذلك المساء كريدا والمساري والعجوز عفيونة، بائع الكيف ومعجون الحشيش في المقهى. طلبت من السي موح كأس قهوة سوداء قوية واشتريت خمس بسيطات من الكيف. كنت مهموماً، وكانوا هم يتحدثون عن الملك فاروق ومحمد نجيب وسياسة جمال عبد الناصر وثورة 23 يوليو. كنت راغباً في مشاركتهم الحديث. دخت السبسي الأول. حشوت السبسي الثاني ومددته إلى كريدا الذي رفضه. قال لي عبد المالك وأنا أمد له السبسي:

- احتفظ بكيفك. عندنا كفاية من الكيف.

فكرت مع نفسي: وحين لا يكون عندك الكفاية منه إلى من تلجأ أيها المفلس؟ ألا تطلب مني أن أشتري لك لفة منه؟ قال لي المساري:

- دعنا نتحدث بلا مضايقات.

أولاد القحاب. كلهم ضدي اليوم. إنهم يتكبرون. لست إذن في مستواهم في هذا اليوم. حتى عبد المالك يهينني هكذا. كنت أدخل السبسي تلو الآخر مفكراً في الانتقام. وضع السي موح كأس قهوتي فوق طاولتي. اشتريت من عفيونة قطعتين من المعجون وأكلتهما ثم شربت جرعات من قهوتي الساخنة حتى يكون المفعول جيداً. دخل كمال التركي سكران. دعوته أن يجلس معي فرفض. انحنى علي وهمس لي بالفرنسية:

- معي نصف زجاجة ويسكي. سأصعد إلى السطح. اتبعني إذا كنت راغباً أن تشربها معي.

وافقت بهزة من رأسي. رشفت من قهوتي عدة رشفات وتبعته حاملاً معي السبسي والكيف. وجدته يشرب من فم الزجاجاة ناظراً إلى البحر الذي أتى منه منذ شهور في باخرة تركية نزل منها ورفض أن يعود إليها. أعطيته علبة الكيف والسبسي ليعمر بنفسه. أعطاني الزجاجاة. شربت جرعتين..

- كيف هي أحوالك؟

- ما زلت أنتظر أن ترسل لي أسرتي النقود لأعود إلى إستانبول.

- والمركب الذي تركته، هل ستعود لتعمل فيه؟

- المراكب كثيرة، سأبحث عن مركب آخر.

ظللنا نشرب وندخن ونتكلم عن همومنا حتى فرغت الزجاجاة.

سألته:

- ماذا ستفعل هذه الليلة؟

- لا أدري.

أخفى الزجاجاة الفارغة تحت سترته وهبطنا. وجدنا عبد المالك واقفاً كعادته يعلق على الأخبار التي تذيعها إذاعة لندن بالعربية في المساء. كان كأس قهوتي والمجلة المصرية المصورة ما زالوا فوق طاولتي.

جلست وعرضت على كمال أن يشرب معي شيئاً. اعتذر قائلاً:

- لي موعد مع محمود المصري في مقهى دار الدباغ. (هذا أيضاً كان يقوم بنفس دور عبد المالك). سيسلف لي بعض النقود.

قال له السي موح:

- لا أريد السكرى في قهوتي.

قال له كمال بالعربية:

- السلام. السلام. يا السي موح.

ضحكت. ودعني بإشارة من يده وخرج. نظر إليّ عبد المالك غاضباً
وجلس. قال له عفيونة:

- استمر في كلامك يا السي عبد المالك.

قال عبد المالك:

- كيف تريدني أن أستمر في الكلام والأولاد يضحكون؟

قلت له:

- أنا لست وُلداً. أنت تتكلم عن محمد نجيب وجمال عبد الناصر
كأنك تقابلهما كل يوم ويتحدثان إليك عن أسرارهما السياسية. من
أين تعرف كل هذه الأخبار عنهما؟

فقد السيطرة على أعصابه وقال غاضباً:

- أسكت يا هذا الأمي. أنك لا تعرف حتى كيف تكتب اسمك وتريد
أن تحشر نفسك في الموضوع.

قال له المساري:

- لا تهتم به. إنه سكران.

هذه فرصتي لأهين عبد المالك وأنصاره كما أهانني هو وجماعته.
فكرت في كلمات أهينه بها. لم أعرف ما أقوله له. رأسي ثقيل بالكيف
والمعجون والويسكي. سأطلب منه أن نخرج لنتضارب. هذه هي أسهل
وسيلة لا تتطلب أي مجهود في التفكير. قلت له:

- أنا أميّ وجاهل، لكنك أنت كذاب. أفضل لي أن أكون أمياً وجاهلاً
من أن أكون كذاباً مثلك.

أحسست أنني انتصرت عليه. قال:

- أمشي تقود النصارى في البورديل.

قلت له:

- إذا كانت عندك أخت جميلة فقل لها أن تجيئني لأقودها.

قال لي السي موح بغضب:

- أنا لا أريد الصداق في قهوتي. اخرجاً برّاً وتضارباً.

قلت له:

- لماذا تخاطبني أنا وحدي، أم أنه هو يعرف كيف يتكلم وأنا لا
أعرف؟

قال لي كريدا:

- العن الشيطان.

قلت له:

- الشيطان هو الإنسان

ثم قلت لعبد المالك:

- اسمع، لنخرج إلى الشارع لأريك من هو الأمي والقواد.

نهض بسرعة واتجه إليّ. اعترضه كريدا والمساري وعفيونة. دفعهم
عنه. قمت وأمسكت كأس قهوتي وقذفت محتواه على وجهه. غطّي وجهه
بيديه وأمسكني شخص من ساعدي من الخلف. صرخت في وجهه:

- لنخرج برّاً إذا كنت رجلاً.

أطلقني الشخص الذي أمسكني من ساعدي وقال لي كريدا:

- كن عاقلاً.

قلت له:

- ماذا يحسب نفسه هنا؟ إنه مجرد طالب هارب من دراسته وجاء إلى طنجة ليتسكع.

عدت إلى مكاني وجلس معي عفيونة. عمر السبسي وأشعله لي ورجاني أن أهدأ.

صعد كريدا والمساري إلى السطح. دخنت. سعلت. من خلال بعض التعليقات التي سمعتها من الرواد أدركت أن بعضهم يتحدثون لمصلحتي. لا بد إذن أن يكونوا قد سبق لهم أن شعروا بنفس المشاعر العدوانية ضد عبد المالك. هبطوا من السطح. كان وجه عبد المالك يبدو كما لو أنه غسله بماء ساخن. اقترب مني كريدا وقال:

- أطلب منك أن تتصالح معه.

قال عفيونة:

- نعم، قم وتصالح معه من أجلنا.

نهضت معهما. دفعونا لنتعانق. أردت أن أرجع إلى مكاني. لكنهم رحبوا بي كي أجلس معهم. دخل كمال يترنح. حول عينه اليسرى هالة بنفسجية. قال لي:

- هاجمني اثنان في بورديل بن شرقي.

- لماذا؟

- لقد اعتبروني نصرانياً. لم يصدقوا أنني مسلم، قالوا لي: "كيف تكون مسلماً وأنت لا تتكلم العربية؟"

- لكن لماذا كل هذا؟
- كنت أريد أن أدخل مع فتاة مغربية لكي أنام معها.
- أجلس معنا.
- أفضل تعال أنت معي. سنذهب إلى السوق الداخلي لنشرب قليلاً من النبيذ. لقد سلف لي محمود المصري بعض النقود.
- اعتذرت لجماعة عبد المالك وخرجت مع كمال.
- دخلنا دار السعدية الكحلا. قلت له:
- أعرف جيداً صاحبة الدار وفتياتها. لا تخش من شيء.
- استقبلتنا خديجة السريفية. أدخلتنا حجرة مفروشة بأثاث مغربي.
- سألته عما نريده. جاءت صاحبة الدار وقدمت لها كمال. قال لها بالعربية:
- السلام يا مدام.
- سألته:
- هل صاحبك مسلم؟
- طبعاً هو مسلم.
- يتكلم بالعربية؟
- كلا. يعرف فقط بعض الكلمات. إنه تركي.
- تساءلت:
- كيف يكون مسلماً وهو لا يتكلم بالعربية؟
- شرحت لها أن هناك بعض الشعوب لا تتكلم بالعربية، لكنها مسلمة مثلنا.
- قال لها كمال بالعربية:

- أنا مسلم. الله ومحمد رسول الله.

ابتسمت السعدية. قالت لنا:

- اجلسا. هل تريدان أن تبقى معكما خديجة؟

أحلت السؤال على كمال. قال:

- طبعاً ستبقى. وقال لها أن تأتينا بفتاة أخرى جميلة مثلها.

طلبنا زجاجة كونياك وزجاجة صودا. طلبت من خديجة أن تختار لنا

فتاة أخرى. خرجت وسألت كمال:

- أتعجبك حقيقة أم نختار غيرها؟ هناك كثيرات أجمل منهم إذا

شئت.

- إنها رائعة. الفتيات المغربيات يشبهن كثيراً الفتيات التركيات.

جاءتنا خديجة حاملة صينية الشراب تتبعها صفية القصرية. كنت

أعرفها. قالت لي:

- أهلاً بالغزال.

قدمت لها كمال وجلست إلى جانبه. قالت لي خديجة: ثمن الشراب

مئة وخمس وعشرون بسيطة.

قلت لها:

- وإذا أضفنا ثمن المبيت معكما أنت وصفية؟

قالت باسمه ناظرة إلى صفية:

- ثلاثمائة بسيطة.

أخرج كمال ورقتين من فئة مئة بسيطة. طلبت من خديجة أن تنادي

على للاً السعدية. قالت:

- هات الفلوس. ألا تثق بي؟

- ليس الأمر كذلك. إنني أريد أن أتفاهم مع للاً السعدية.

قالت ضاحكة:

- فهمت. أنت تعرف شغلك معها.

رجوتها أن تجلس وخرجت. كانت للاً السعدية جالسة في أقصى وسط الدار. دفعت لها مئتي وخمسين بسيطة. أفهمتني أننا سننام كلنا في غرفة واحدة.

وجدت كمال يبوس صفيّة ماسكاً وجهها بين يديه كأنه يخاف أن تفلت منه. ربما سأنام أنا أيضاً ذات يوم مع فتاة تركية. لفضت خمسين بسيطة ودسستها في يد خديجة:

- لقد تفاهمت مع صاحبة الدار.

دستها في صدرها وباستني على خدي.

كنت قد غفوت عندما هزتني خديجة:

- هل تسمع؟ صفيّة تقول بأن صاحبك التركي يلحس لها شيئها.

- ليفعل معها ما يشاء.

- ألم تقل بأنه مسلم؟

- وماذا في ذلك؟

قالت صفيّة:

- اللحس باللسان أفضل.

كنت سأستيقظ في السادسة صباحاً لأذهب إلى الميناء. رجوت خديجة أن تتركني أنام. أكدت لي أنها ستوقظني في أي وقت أشاء. ضمتني إليها وأدخلت فخذيها بين فخذي وبدأت تحك فرجها مع ركبتي اليمنى

المثنية. إنها تتخيل فخذي كأنها شيء الحصان. صفية تتنهّد وخديجة تناضل مع ركبتي. تشد شعري بقوة. دفعت فرجها عدة مرات في ركبتي ثم تراخت. كمال وصفية يضحكان. انقلبت خديجة ونامت على بطنها. مددت يدي ونزعتها فوقها. كانت ما زالت تحك ببطء مع الفراش. ركبت على ظهرها لأسافر. حاولت أن تسقطني من فوق سنمها. تمسكت جيداً بشعرها حتى لا أسقط في الفراغ. كانت ناقة تطير فوق صحراء السقوط من فوقها هو ضياعي في صحراء مجهولة.

في الصباح، بعد صعودي من الميناء، ذهبت إلى مكتبة في واد أحرضان واشتريت كتاباً لتعلم مبادئ القراءة والكتابة بالعربية.

وجدت عبد المالك في المقهى. قدم لي أخاه حسن الذي جاء من العرائش ليزوره. اعتذرت له عما حدث لي معه أمس. قال:
- انس ما حدث. أنا أيضاً كنت متوتراً.

جلست معهما. أريت لعبد الملك الكتاب الذي اشتريته وقلت له:

- لا بد لي من أن أتعلم القراءة والكتابة. أخوك حميد كان قد علمني في مخفر الشرطة الجنائية بعض الحروف وقال لي بأن عندي استعداداً للتعلم.

- ولماذا لا؟

قال لي أخوه حسن:

- هل تريد أن تذهب إلى العرائش لتدرس هناك؟

قلت له بدهشة:

- أنا؟ كيف يمكن لي ذلك. إن لي عشرين سنة، ولا أعرف حتى كيف

أوقع إسمي.

- لا يهم. أنا أعرف هناك مدير مدرسة. سأكتب لك رسالة توصية لتحملها معك إليه. أنا متأكد أنه سيقبلك. إنه يعطف على الغرباء الذين يرغبون في الدراسة بجد. (أضاف): لو لم أكن ذاهباً إلى تطوان لتسوية مشكل لي هناك مع النائب الإقليمي لصحبتني وقدمتك بنفسني إلى مدير تلك المدرسة. إنه صديقي.

بعد لحظة قال لي:

- اذهب واشر ورقة وظرفاً لأكتب لك الرسالة.

خرجت دون أن أصدق ما قاله لي. اشتريت ما طلبه وعدت بسرعة. أخذت مني الورقة ووضعها فوق جريدة عربية وأخذت يكتب بخط جميل. كان يكتب ويتوقف ليدخن معنا الكيف. حينما انتهى من كتابتها وضعها في الظرف وأقبله. أعطاني الرسالة ووضعها في جيب كبوطي. سألته:

- متى يمكن لي أن أسافر إلى العرائش؟

- متى شئت. لكن حاول أن تذهب في هذه الأيام.

كانت حوالى الثانية عشرة زوالاً حينما ودعنا حسن ليسافر إلى تطوان. أكد عليّ وهو يصافحني:

- سنلتقي هناك بعد ثلاثة أو أربعة أيام. لا بد أن تذهب.

خرج وقال لي عبد المالك:

- أنا سأذهب إلى مقبرة بوعرقية.

- لماذا؟

- لقد كلفني هنا في المقهى بعض الإخوان لأقرأ ما تيسر من القرآن الكريم على قبور عائلاتهم.

- سأصحبك. (أضفت): لي أخ مدفون هناك، هل يمكن لك أن تقرأ

على روحه سورة؟

- أخوك؟

- نعم، لي أخ هناك.

في الطريق سألته:

- ماذا حدث لأخيك حسن؟

- لقد ارتكب حماقة: طردوه من المعهد في العرائش لأنهم وجدوه يشرب الخمر ويدخن الكيف في غرف داخل مسجد يسمح للطلبة الغرباء أن يقيموا فيها مجاناً. (أضاف): إنه دائماً يقترب مثل هذه الحماقات.

في السوق الكبير، اشتريت باقة من الزهور وعند باب المقبرة اشتريت باقة من الريحان. وجدنا هناك بعض حفظة القرآن يقرأون سوراً على بعض القبور وزواراً يترحمون على موتاهم. كنا نتمشى بين القبور عندما سألته:

- هل تعرف مكان كل القبور التي ستقرأ عليها السور؟

- كلا. المهم هو النية. لا يهم أن أقف قدام قبر معين لأقرأ رغم أنني أعرف بعضها. وأنت أين قبر أخيك؟

نظرت نحو السور الذي دفن قربه أخي وقلت له:

- هناك. لا يمكن العثور عليه. إننا لم نبين له قبراً قبل أن نرحل إلى تطوان. كنا فقراء.

- سأقرأ عليه سورة ياسين.

توقف فوق ربوة وراح يقرأ على أهل الرفاق الذين كلّفوه. عندما انتهى توجهنا نحو المكان الذي دفن فيه قبر أخي. قلت له:

- هنا. قرب هذا المكان.

أخذ يقرأ. أثناء قراءته كنت أنثر الزهور والريحان على بعض القبور وعلى الأرض غير المقبرة بعد. كان مدفوناً هناك. ربما تحت قدمي أو تحت قدمي عبد المالك أو في مكان ما. فجأة فكرت. لكن لماذا هذه القراءة على قبر أخي المجهول؟ إنه لم يذنب. لم يعيش سوى مرضه ثم قتله أبي. تذكرت قول الشيخ الذي دفنه: "أخوك الآن مع الملائكة".

أخي صار ملاكاً. وأنا؟ سأكون شيطاناً، هذا لا ريب فيه. الصغار إذا ماتوا يصيرون ملائكة والكبار شياطين.

لقد فاتني أن أكون ملاكاً.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

لم يتعلم محمد شكري القراءة والكتابة حتى العشرين من عمره، فكانت حدائته انجرافاً في عالم البؤس حيث العنف وحده قوت المبدعين اليومي. هروب من أب يكره أولاده (فقد قتل أحد أبنائه في لحظة غضب)، شرود في أزقة مظلمة وخطرة بحثاً عن الطعام القليل، أو عن زاوية لينام فيها، واكتشاف لدنيا السارقين والمدمنين على السكر، تلك هي عناوين حقبة تفتقر إلى الخبز والحنان.

هذا العرض لسيرته الذاتية نص مؤثر وعمل يحتل موقعاً متميزاً في الأدب العربي المعاصر. وليس صدفة أنه نشر بعدة لغات أوروبية كثيرة مثل الإنكليزية أو الإسبانية، قبل نشره بلغته الأصلية العربية.

قيل في الكتاب

«إن الذي يكتبه شكري هو من الأمور التي تقال، بحيث يلفها الكتمان، أو على الأقل لا تكتب وتنشر في الكتب، خصوصاً في ميدان الأدب العربي المعاصر». الطاهر بن جلون

«يقول شكري كلاماً لا يجوز نشره ولا التصريح به. وأنت حين تلتهم الكتاب، تتذكر كيف تربى هذا الجيل العربي». الشرق الأوسط

«لغة تخترق أرواحنا». العرب

«كم كان الناشر موفقاً في اختياره». الدستور

«كتاب جريء يفضح الواقع العربي». الناقد

نبذة عن المؤلف

محمد شكري (1935-2003) روائي مغربي. عملَ صبيّ مقهى وهو دون العاشرة، ثم عملَ حمّالاً، فبائع جرائد وماسح أحذية ثم اشتغل بعد ذلك بائعاً للسجائر المهربة. لم يتعلم القراءة والكتابة إلا في عمر العشرين.

كتب أخرى للمؤلف

«الشطار»، «وجوه»

الفهرس

كلمة

1

2

3

4

5

6

7

8

9

10

11

12

13

حول الكتاب